

# روح الإسلام

## جمال البنا

الطبعة الثالثة

## المحتويات

- مقدمة الطبعة الثالثة
- مقدمة الطبعة الأولى

### الباب الأول لماذا الإسلام

- الفصل الأول: لأن التقدم المادى - وحده - لا يكفى
- الفصل الثانى: لأن الإسلام أفضل صور الالتزام
- الفصل الثالث: لأن الإسلام أبرز مقومات الشخصية

### الباب الثانى مكونات الإسلام

- الفصل الرابع: الإسلام عقيدة
- الفصل الخامس: والإسلام عبادة
- الفصل السادس: والإسلام خلق
- الفصل السابع: والإسلام شريعة
- الفصل الثامن: والإسلام أيضا تراث

# إهداء

إلى...

الأخ العزيز المهندس / عبد الله البنا

الذي مثل روح الإسلام

بشراً سويماً...

جمال البنا

## مقدمة الطبعة الثالثة

لهذا الكتاب معزة خاصة. إذ هو يمثل بداية عودتى إلى "الشأن" الإسلامى الذى كنت قد بدأتته عام ١٩٤٦ عندما كتبت فصل "فهم جديد للدين" فى كتاب ديمقراطية جديدة. ثم عرضت له فى كتاب "موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة" سنة ١٩٥٧. ثم شغلتنى الظروف عنه عندما تكونت الثقافة العمالية أوائل الستينات وبدأت تنظيم وتنهيج الثقافة العمالية وطلب المسئولون عنها منى تقديم كتابات وإلقاء محاضرات عن التنظيم والبنيان النقابى وتاريخ الحركة النقابية فى بعض دول العالم، وقد استغرق العمل فى هذا المجال - تأليفاً وترجمة - ومحاضرات عشرة أعوام أخذتنى عن موضوعى الأثير. حتى لم استطع صبراً فكان "روح الإسلام"...

وعندما أفكر الآن أجد أن مشغوليتى عن الكتابة الإسلامىة الخالصة طوال هذه المدة، وعكوفى على الحركة العمالية والنقابىة أسهم فى إثراء تفكيرى الإسلامى وتوسيع آفاقه وإعطائه إحدى الخصائص التى يتميز بها عن الفكر الإسلامى التقليدى.

وعندما صدر الكتاب عام ١٩٧٢، ظفر بإعجاب الكثيرين وقال لى أحد النقاد ما من واحد يقرأه حتى يقع فى حبه!، وأذكر أن الدكتور أحمد النجار رحمه الله، وهو رائد البنوك الإسلامىة أيقظنى فى موهن من الليل ليخبرنى بأنه وجد فى هذا الكتاب كل ما كان يفكر فيه بالنسبة للإسلام، وطلب أن يتولى الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامىة إعداد طبعة خاصة لتكون أحد المراجع فى الدراسات "لكوادر" البنوك الإسلامىة، وقبلت بالطبع، وظهرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب..

وفى مرحلة لاحقة أعجبت به السيدة منى عبد الله التى تتعاون معى تعاوناً وثيقاً صادراً عن فهم عميق ومشاركة فكرىة تامة حتى لقد بدأت - رغم مشاغلها العديدة - فى ترجمة بعض فصوله إلى الفرنسىة واقترحت على إعادة طبعه.

ولم أكن أفكر فى طبع كتاباتى القديمة لأنى اعتقدت إن الكتب الأخيرة التى تمثل التطور الفكرى الأخير تغنى عنها، وأنها قد تظهر هذه الكتابات الأولى كما لو كانت ساذجة، ولكن ظهر أن الأفكار التى تضمنت هذه الكتب الأولى لها جمهور كبير لعله أكبر من الجمهور الذى يستوعب الكتابات الأخيرة، ففىها بساطة وسهولة، وهى تقدم موضوعها بصورة سائغة مفهومة تبرأ من التعقيد والتحقيق الذى تطلبتته موضوعات مثل "توفقه جديد" وغيره فضلاً عن أن أفكارها تتوفر فىها الجدة والأصالة بمعنى أن مستواها فى هذه لا يقل عن مستوى الكتابات الأخيرة.

عامل آخر شجعنى على إعادة طبعه، ذلك أنه يمثل درجة من درجات تطورى الفكر، وكيف استطعت أن أخلص من معمعة المشاغل - ولو جزئياً - لأقدم هذه الإضافة عن روح الإسلام.

وكانت النية إصدار جزء ثان كما جاء فى مقدمة الطبعة الأولى، ولكن حالت دون ذلك التطورات، ومعظم الأفكار الواردة فى هذا الكتاب هى ما نؤمن به الآن، وأن أقلعت فى الأيام الأخيرة أو عن مناقشة

العقائد ما بين الأديان، لأنى وجدتها فى الحقيقة وراثه يحملها أصحابها، وهى بهذه الصفة لا تدخل فى مجال الاختيار والإرادة الفردية، وأن إثارتها توجد حساسيات لا تختلف عما تثيره الموضوعات العنصرية، وقد أغنانا الإسلام عن ذلك لأنه أرتضى التعددية الدينية ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ \* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وأن كل حديث عن الاختلافات ما بين الأديان مردها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة بحكمة أعلا من حكمتنا وفهم أوسع من فهمنا الذى يتحكم فيه القصور والتحيزات. بل لقد رأيت أن فى تعددية الأديان فضيلة وفيرة، وإلا لما أرادها الله وأبقى عليها، فلنقبلها بطيبة نفس ولنعلم حكمه الله فى ذلك..

ولعل من حق قراء هذا الكتاب أن يعلموا إن السلطات تحفظت عليه فى المطبعة قرابة عام تقريباً حتى أمكن استخلاصه منها بعد أن أصاب العطب بعض النسخ التى كانت موضوعة فى مكان أفترض أن تنقل منه فوراً فظلت فيه عاما.

وأخيراً فإن هذا الكتاب يأتى وقد أعلننا عن ظهور دعوة الإحياء الإسلامى، وسيأخذ هذا الكتاب طريقه ليكون كتاباً جديداً يضاف إلى مكتبتها.

لهذه الأسباب يسعدنى أن أقدم إلى القارئ الطبعة الجديدة من روح الإسلام...

القاهرة فى: شعبان ١٤٢١ / نوفمبر ٢٠٠٠

**جمال البنا**

## مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

### "قد استقام الميسم"

لم يكن خالد بن الوليد بين رجالات قريش بالذي يُكنّ عداوة خاصة للإسلام، ولكنه لما كان القائد المبرز فقد كان عليه بحكم هذه الصفة أن يوقع بالمسلمين الهزيمة، وقد حاول ذلك في كل المعارك التي شهدتها وحققه في "أحد" التي استشهد فيها زهرة فرسان المسلمين، ولكن انتصار الإسلام كان أعظم من هزيمة أحد، وقد فكر خالد فأطال التفكير، ثم خرج ليعلن بطريقته العسكرية الصريحة "قد استقام الميسم وإن الرجل لنبي" وذهب ليضع سيفه بين يدي الرسول..

واليوم، وبعد ألف وثلاثمائة سنة يقف المفكر العربي الموقف نفسه، فحتى لو كان يضمر إغزازاً خاصاً للإسلام، فإنه بحكم صفته كمفكر يرفض الأخذ بالمسلمات، ولا يرى فيما ورث أو ما يؤمن به الناس مقنعاً لإيمانه، خاصة وهو يشهد الأوهام تكاد تذهب بالحقيقة فيما يقرأ أو يلمس عن الإسلام، ومن ثم فإنه يبدأ معركة فكرية قد تكون أقسى من معركة خالد، لأن الفكر أعصى من السيف، والعصر الحاضر أقسى من الزمن الماضي.. ولكن النهاية مع ذلك واحدة: انتصار الإسلام..

وقد تكرر هذا الموقف ببدايته ونهايته منذ أن انبعثت المجموعة الأولى للمفكرين المصريين في العشرينات وضمت طه حسين ومنصور فهمي وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر حتى آخر المجموعات في الخمسينات والستينات وضمت خالد محمد خالد ومصطفى محمود وجلال كشك وغيرهم، فهؤلاء جميعاً بدأوا بالشك أو المعارضة، وانتهوا إلى الإيمان واليقين.

ومع أن التكرار يبعد الأمر عن أن يكون حالة فردية ويعطيه مضمون الظاهرة الاجتماعية، ويضيف برهاناً جديداً على أنه "ما شاد الدين أحد إلا غلبه" إلا أن هذا التكرار نفسه يدل على أن هذه المعالجات كانت جزئية، فكل منها يتناول ناحية في نواحي الأدب أو العقيدة أو النظام الاجتماعي في الإسلام دون أن تجر معالجة شاملة لاستكشاف الإسلام كنظرية شاملة ومتكاملة، ولربط بين هذه المعالجة وبين المجتمع الحديث، وبوجه خاص بالنسبة للوطن العربي، فقد حال دون ذلك الانقسام في شخصية المجتمع المصري الذي بدأه محمد على عندما أوفد البعثات إلى الخارج، وفتح الباب للثقافة الأجنبية ووضع بذلك بذرة الانقسام ما بين الثقافة الحديثة التي تمثلها الجامعات الأوروبية، والثقافة التقليدية التي يمثلها الأزهر. ودعم الاحتلال البريطاني هذا الانقسام وعمقه، فاحتضن باليمين المعسكر التقليدي واحتضن بالشمال المعسكر الحديث وعمل بكل قوة للحيلولة دون التقائهما. وكانت نتيجة ذلك أن أصبح المثقفون المحدثون لا يلمون بالإسلام والمثقفون التقليديون لا يلمون بالعصر. ولما كان لكل من المعسكرين اعتزازه الخاصة ومواقفه ومناطق نفوذه، فقد أثر كل منهما الانطواء وحفر خنادقه وأوى إليها. وأصبح ممثلو الثقافة الإسلامية بمعزل عن ثبج المجتمع وتياره الرئيسي وأخذوا شيئاً فشيئاً شكل "رجال الدين" بأزيائهم وسماتهم وتخصصاتهم المعينة، فلا يطلبون إلا في المناسبات الدينية ولا يستشارون إلا عندما يراد الاستعانة بنفوذهم الروحي، وعندئذ يؤتى بهم ليأخذوا مقاعدهم بجانب إخوانهم رجال الدين المسيحي، لا يفرق بينهم إلا لون العمامة!، بينما يدير المعسكر الآخر شؤون الحياة، ويهيمن على الصحف ووسائل الإعلام والتوجيه الأيدلوجي والنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

ولم تكن هذه القسمة بالسيئة بالنسبة للفريقين فيما يبدو. فقد عينت الحدود والاختصاصات، وتقبل كثير من "رجال الدين" هذا الوضع بعد أن استرضوا ترضية مادية فيما يتعلق بالوظائف والدرجات والألقاب وترضية أدبية في المناسبات، وفتحوا بما قدمه المسؤولون من رضى سخية وإن لم تصل إلى حد السهم الذي يدل على لون المشاركة. وإن كان يحدث بين الفينة والفينة احتكاكات واستتارات يشعلها المتحمسون من الفريقين الذين يفكرون تفكيراً أيدلوجياً يجاوز دائرة الاختصاصات العملية والفنية. فيظهر من الفريق الحديث من يشن حرباً على "التعصب" و"الرجعية" و"الفسوق" و"التقليد الأعمى" ولكن قلما يجاوز كل فريق مواقعه وخنادقه التي آوى إليها، وإن نجحت هذه المبارزات في توهين المبادئ التي يمثلها كل فريق وزعزعة الثقة بها.

ومع هذا فلم تكن الضحية الحقيقية لهذا الوضع هي الإسلام، فالإسلام غنى بأصوله، قوى بمبادئه، مستكف بحماية الله وحفظه، ولا الثقافة الحديثة التي تمضى قدماً في بلادها ولا الفريقين اللذين يحتفظ كل منهما بمواقعه.. ولكن الضحية كانت المجتمع المصري، أي الأغلبية الساحقة التي لم تضعها ظروفها في معسكر من المعسكرين، أو تلزمها مواقع الالتزام أو الاحتراف في إحداها. وكذلك الشباب الذي تغلب على حماسه قيود الأوضاع ومقتضيات المصالح. فأصبح هؤلاء نهياً وفريسة للقلق والحيرة والضياح والانتفاء إلى أشد المذاهب غرابة وشذوذاً ونكراً وسرى التفكك والانقسام إلى نواة المجتمع - الأسرة - فأعلن الآباء والأمهات عجزهم عن توجيه أبنائهم وبناتهم، أو الوصول معهم إلى صعيد مشترك للتفاهم. ولم يعد من النادر أن نجد أسرة الأب فيها شيخاً، والأم حاجة، والابن شيوعي، والبنات وجودية. فكيف يمكن أن نسمى "هيئة الأمم" هذه أسرة..؟

وفشلت كل المحاولات التي أريد بها إصلاح هذا الوضع أو حتى التنبيه إلى خطورة الأمر، رغم النكسات والمثالات. لأن المعالجة الحقيقية إنما تكون بالمجابهة الحاسمة الصريحة والمنهجية للمسألة الأيدلوجية، والمسألة الأيدلوجية لهذه البلاد هي الإسلام، فإنها لم تعرف مذهباً أو نظرية على مدار ثلاثة عشر قرناً متوالية إلا الإسلام. ومن ثم فإن أمس حاجة، وأعظم خدمة يمكن أن يقوم بها مفكر عربي هي أن يحدد الموقف الأمثل ما بين الإسلام وما يفرضه من إيمان، والعصر الحديث وما يطرحه من أوضاع وبقدر ما يكون هذا التحديد صريحاً، واضحاً لا لبس فيه ولا التواء، بقدر ما يعجل هذا بانتهاء فترة الانتقال ويخلصنا من الحلقة المفرغة ومن حالة الضياح والتمزق.

وليس هناك مانع أصولي من ذلك. فقد قام الخلاف أولاً على أساس التخصص المريح الذي تقبلته القيادات دون أن تعنى بشعبها التائه على مفارق الطرق. ولو أنطلق كل منهما لانتقيا في نقطة معينة تلك هي أن الإسلام هو قاعدة المجتمع المصري، وبدونه لا يكون لهذا المجتمع أصالة أو استقرار. وهو أمر يجب أن يعترف به المثقفون المحدثون لأنه حقيقة يثبتها الواقع والماضي والتمحيص الموضوعي. ومن ناحية أخرى فيجب على ممثلي الثقافة الإسلامية أن يستكشفوا الإسلام من جديد في ضوء العصر. وأن يفهموه فهماً ينبثق من جوهريات وأصول الإسلام دون التفريعات. لأن الأصول والجوهريات هي وحدها التي تمثل هداية الإسلام للبشرية. أما التفريعات فإنها اجتهادات تتأثر بالأوضاع وتتكيف بالملابسات.

\*\*\*

ومنذ قرابة ربع قرن وقد لفتت هذه الظاهرة انتباهي، وقد رجوت وتمنيت أن يقوم مفكر مسلم بهذه المهمة التاريخية، وعبرت عن ذلك في كتابي ديمقراطية جديده (١٩٤٦) وموقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧).. ولكن ربع قرن مضى دون أن يظهر هذا المفكر، وأصبح القيام بهذه المهمة فرض عين..

ومن الحق أن أقرر أن هذا الكتاب إنما جاء بهدف مزدوج. هدف استقصاء الحقيقة الإلهية التي تمثل نزوة وقمة المعنويات وهدف البحث عن حل لهذا الضياع الأليم الذي نعيش فيه، والذي أفلست في علاجه كل الجهود التي بذلت -على مدار العشرين عاما الأخيرة- والاصطناعات والصياغات...

وقد وجدت أن هذا العمل يجب أن يتضمن أربعة أبواب حتى يحقق المعالجة الشاملة المنشودة. ففي الباب الأول يكون علينا أن نوضح مبررات الأخذ بالإسلام حتى يمكن أن نرد على السؤال الذي يستكن في أعماق الكثيرين "لماذا الإسلام؟" فإذا وضح ذلك فعلينا أن نرد على سؤال آخر هو "ما هو الإسلام" لأن الغشاوات حجبت حقيقة الإسلام وجوهره. وهذا هو ما يعالجه الباب الثاني بعنوان "مكونات الإسلام".

ولكن معرفتنا بمكونات الإسلام من عقيدة أو عبادة أو خلق أو شريعة أو تراث لا تكفي، إذ لا بد أيضاً من أن نفهم طبيعة الإسلام وروحه، وطريقة عمله وتفاعل مكوناته ووسائله في التقييم ومعاييرها في الحكم على الأوضاع والسلوك وما استحدثه من أساليب من "المقاصة" أو "البدائل" الخ... مما يطلقون عليه في التعبير الإنجليزي "ميكانزم الإسلام" وهو ما يجب أن يعالجه الباب الثالث.

ولكي يكون هذا الباب مفهوماً وواضحاً، فقد رأيت أن من الضروري إيراد بعض الأمثلة التطبيقية لفهم الإسلام تجاه عدد من القضايا البارزة مثل المرأة، والعمل، والفنون، والآداب، والماركسية الخ... وبهذا تتضح أبعاد الصورة تماماً وتتميز قسماتها بما لا يدع شكاً أو ظناً.

ولكني لم أكد أبداً في الكتابة حتى وجدت أن الكتاب بهذا الترتيب سيكون ضخماً يشق على القارئ شراءه واستيعابه، كما تحكمت في الأمر أيضاً الضرورات العملية والمادية. ولم يكن هناك سوى مخرجين. فإما ضغط المادة ضغطاً كبيراً بحيث يتضمن الكتاب الأبواب الأربعة، ويكون في حجم معقول، وقد وجدت أن هذا يكاد يكون مستحيلاً، فلم يبق إلا تقسيم الكتاب إلى كتابين يتضمن أولهما البابين الأول والثاني، ويتضمن الثاني البابين الثالث والرابع، والنقص في هذا أن قارئ الكتاب الأول قد لا يقرأ الكتاب الثاني، أو أن قارئ الكتاب الثاني قد يفوته الأول، ولكن هذا أهون من أن يأخذ القارئ صورة عامة غير واضحة أو محددة عن الموضوع بأسره.

ومن ثم فإن هذا الكتاب في حقيقته هو نصف المشروع وأرجو أن يظهر قريباً نصفه الآخر، وأن يقدر للذين قرأوا الأول أن يقرأوا الثاني حتى تتكامل في أذهانهم صورة هذه المحاولة لاستكشاف روح الإسلام ولجعله نقطة الانطلاق، وحجر الأساس في نهضة الوطن العربي، ولإفادة البشرية عامة به..

## جمال البنا

القاهرة في: سبتمبر ١٩٧٢ / شعبان ١٣٩٢



## الباب الأول

### لماذا الإسلام؟

#### حقيقة لماذا الإسلام؟

أغلب الظن أن هذا التساؤل هو ما يتبادر إلى ذهن معظم المفكرين والمتقنين في الدول العربية. فالمفكر العربي يستهدف التقدم والنظر إلى الأمام وليس التأخر والنكوص إلى الوراء. وهو يؤثر الحرية على مختلف صور الضبط والإلزام. وواقع المسلمين جماهير وقيادات لا يشجع على دخول هذا الميدان بل هو يثبط عن ذلك غاية التثبيط. ولدى الإسلام من المتعصبين له والمتحدثين باسمه ما يكفي وزيادة، وبعضهم يرون الحديث عنه حكراً لهم ووفقاً عليهم. وقد انحطت معظم الكتابات الإسلامية حتى طغت الأباطيل فيها على الحقائق. وأصبحت حديثاً معاداً مكرراً ليس فيه جده أو إبداع أو أصالة. وقد كانت الدعوات الدينية -ولا تزال- أخصب مجال للاستغلال والإدعاء. ولم تستغل الجماهير أو تتظاهر القيادات بمثل ما يحدث عن طريق الدين. ولعل تسعة أعشار مظاهر التقوى والورع غفلة غبية أو نفاق رخيص وما أكره هذين إلى نفس المفكر...

والعصر بعد عصر التقدم، ورياح التغيير- بل أعاصير التغيير- تقنلع الماضي وتوجد أوضاعاً جديدة.. ودول الشرق متخلفة.. وهي في أمس الحاجة إلى استدراك هذا التخلف بالعلم، بالأسمت، بالحديد، بالكفاية الإنتاجية..

كل هذا معروف.. مفهوم.. له وزنه وثقله...

ومع ذلك...

فالأمر بعد- كما يقول القرآن ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ ودائرة الأمانى كلها مستبعدة بالمرّة ولا يمكن للكاتب أن يحكم إرادته أو رغبته الخاصة أو ما يتمناه.. لأن القضية موضوعية تماماً، وهي تفرض نفسها وتقوم على حقائق، وقواعد وأسس، وليس على رغبات وإرادات.

\*\*\*

هناك ثلاثة عوامل - على الأقل - تفرض علينا الالتزام بالإسلام...

- فالتقدم المادي- وهو الإسهام الذي حققته الحضارة الأوربية الحديثة- لا يكفي لإسعاد البشرية ولا يحقق سلام النفس ولا بد من عقيدة إلهية كاملة مبرأة، وهذه ما يقدمها الإسلام.
- والإسلام وحده هو الذي يقدم أفضل صور الالتزام التي يقوم عليها مجتمع..
- والإسلام بعد هو أبرز مقومات الشخصية العربية، وبدونه تكون هذه الشخصية باهته سطحية بلا أعماق، ولا جذور، ولا بلورة..

وفي هذه الأسباب الثلاثة مقنع لمن يبغى الحقيقة.. ومن يحكم العقل لا الهوى.. ومن يغلب الإنصاف لا الإغراض.

## الفصل الأول

### لأن التقدم المادي - وحده - لا يكفي..

منذ العصور الأولى للإنسان وقد قاد خطواته "إيمان" جعل له دوراً وأضفى على وجوده طعماً وأكسبه غاية.. حتى وإن لم يكن هذا الطعم سائغاً أو لم تكن الغاية هي الغاية المنشودة..

وبفضل هذا الإيمان استطاعت الجماهير أن تتغلب على شظف الحياة، وقسوة المعيشة.. قبل أن تظهر المطبعة والآلة لينقذاها من جهالتها وفاقتها..

ومن السخف القول إن الإيمان لم يكن أكثر من "أفيون" الشعوب طوال هذه العصور خدرها ومكنها من أن تحمل عبئها وتستسلم لقدرها..

لأنه ما لم يكن هناك سلاح للمقاومة، وما لم يحن الوقت المناسب. فإن أية وسيلة للتحمل تعد تقدماً، وليس هناك بديل سوى الانتحار.. أو الفشل، وثورات الفلاحين التي انتظمت المجتمع الأوربي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وباعت بالفشل دليل على ذلك..

والذين يقولون أفيون الشعوب.. هم أنفسهم الذين يقولون "إن الحكم على كل نظام اجتماعي وكل حركة اجتماعية في التاريخ لا ينبغي الحكم عليها من ناحية العدالة الأبدية. أو من ناحية أية فكرة أخرى مقدره سلفاً كما يفعل المؤرخون غالباً. بل ينبغي حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين بها.

إن نظام الرق في الظروف الحاضرة خرق وبدعة مضادة للطبيعة، ولكن نظام الرق في ظروف الشيوعية الأولى الآخذة في الانحلال، هو حادث مفهوم تماماً، ومنطقي، لأنه يعني خطوة إلى الأمام بالنسبة لها"<sup>(١)</sup>.

ومن المهم أن نفهم "التحمل" الذي إرتأته الأديان البشرية وقتئذ على حقيقته. فلم يكن يعنى الاستسلام الأبدى.. ولكن المطاولة والصبر، والثبات حتى تأتي اللحظة المناسبة، ولو بعد أجيال.

ومن المهم أيضاً أن نوضح أن الأديان في الوقت الذي مكنت الجماهير من التحمل والمطاولة بحيث لا تبخع نفسها، أو تدخل في معارك خاسرة فإنه كان ملزماً للقيادات حتى أعلاها -الملوك - ولم يكن غيره يستطيع ذلك. فكان الملك في أوربا يخضع للبابا كما كان السلطان في الشرق يخضع للخليفة باعتبار هذين ممثلين للإرادة الإلهية. ولم يكن البابا أو الخليفة، بدورهما، بمنأى عن النقد رغم كل هيلمانهما، وما ألصق بهما من عصمة، لأن هذا الهيلمان لم يكن شخصياً أو وراثياً، وإنما كان مستمداً من أنهما ممثلا العقيدة، فإذا جافياها تعرضا للنقد، كما حدث بالفعل في حالات عديدة جداً.

المهم في هذا كله أن الإيمان الديني زود الجماهير بطاقة من التحمل والصلابة وأودع فيها من المشاعر النفسية والعاطفية ما جعلها لا تفقد الأمل في المستقبل حتى لو كان في ملكوت السماء.. أو عند

١. ستالين: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٣.

الأجيال التالية ومكنها هذا وذلك من أن تتحمل قدرها وظروفها في رجولة دون أن يتطرق إلى نفسها يأس أو تحس ضياعاً.

وهذه النقطة هامة. ففي جحيم الفاقة والبأساء والجهالة أثرى الدين حياة الفقراء.. وأضاء معيشتهم المظلمة ويسر لهم فلسفة ذات أبعاد وأعماق.. بينما لم يغن كل ثراء التكنولوجيا خواء النفوس. ولم يكن في كل معارف العلم مقنعاً معنوياً لجماهير العصر الحديث...

\*\*\*

وقد طويت هذه الصفحة في أوروبا بظهور العصر الحديث، وتهاوى الإيمان الديني بعد أن وجهت إليه مطارق العلم الحديث وجدت عوامل وأوضاع ظن أنه قد أصبح معها غير ذي موضوع

فقد حقق الرخاء المادي جنة على الأرض، فلم تعد الجماهير بحاجة إلى الصبر والتحمل والسلوى، واقتلعت الثورات السياسية الملوك من عروشهم، وحددت الدساتير النظم والحقوق والواجبات بحيث لم يعد الدين هو الذي يكبح جماح الملوك والقادة، فانكمش الإيمان الديني وأصبح شيئاً من التراث يحيا على هامش اهتمامات الناس وأصبح الدين "كنيسة" يزار ساعة كل أسبوع أو في مناسبات الزواج والوفاة..

وخطت أوروبا خطوة جديدة حاسمة عندما تفتحت لها أبواب الثورة التكنولوجية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، هذه الثورة الثانية التي جعلت الثورة الصناعية الأولى حدثاً بدائياً، توضع منتجاته في المتاحف. إذ أوجدت عمالقة الذرة وسحرة الإليكترون و "الكمبيوتر" وأشعة ليزر والعدسات التليفزيونية. ووسائل الآلية التلقائية في الصناعة "الأتوميشن" وانهالت السلع اللامعة البراقة من كل نوع بالملايين وغصت بها البيوت بينما تجرى العربات الفارهة على الطرقات اللامعة، وتشق الطائرات عنان السماء وتنزل الغواصات التي تسير بالطاقة الذرية إلى أعماق الأعماق المظلمة للبحار والمحيطات. وتتطلق الصواريخ لتنقل لأول مرة من إيسار الجاذبية الأرضية وترتاد عالم الفضاء العجيب وتنزل على القمر وتذهب إلى الزهرة، وانهالت الثروات على الشعوب وارتفعت مستويات المعيشة ارتفاعاً كبيراً وتضاعفت نسب الاستهلاك في كل شئ حتى لقد سمى المجتمع المعاصر "المجتمع الاستهلاكي" وتقدمت فنون الاستمتاع بالأكل، والشراب، واللهو كما لم يحدث أو يتصور من قبل. ونسى الفقر باعتباره الجوع الكافر أو العوز المنزل وأصبح الفقير عرفاً هو من يتقاضى قرابة ألف جنيه في السنة..

بالاختصار.. أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، وكاد أن ينطبق عليها قول الله ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ \* وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾..

فهل قضت البشرية لبانتها.. ووجدت جنتها، وظفرت بالسعادة المنشودة..

لا ريب في أن كثيراً من جوانب الحياة كالصحة العامة ومستوى الثقافة وظروف السكنى والمواصلات قد تحسنت تحسناً بالغاً إذا قيست بمثيلاتها في الماضي، كما تحسنت ظروف فئات معينة كانت مقهورة، مغبونة كالعمال والفلاحين والنساء والأطفال، ولم تعد الحياة رتيبة كئيبة مظلمة.. ولكن أنيقة لامعة متألئة...

ومع هذا..

فلم يحقق التقدم التكنولوجي ما أمله الناس منه وكانت هناك دائماً هوة كبيرة.. بين الأمل والواقع.  
مع كل استمتاع كان هناك غصة.. ومع كل تقدم كان هناك نكسة.

فعندما جعل الإنسان الأوربي الاستمتاع غايته عوقب.. بأن لا يدرك قط غاية هذا الاستمتاع، أصبح الاستمتاع نوعاً من السراب لا يكاد يبلغه حتى يفلت منه. وهي حقيقة قد تأخذ شكل قانون الغلة المتناقضة أو قاعدة "التعود أو الزيادة" ويحسها جيداً المدمنون والمدخنون وشاربو الخمر الذين لا يلزمون القصد، ولكن يستهدفون أقصى درجات الاستمتاع. فلا يبلغون درجة من الاستمتاع حتى تصبح بعد مدة عاجزة عن إشباعهم، ويصبح من الضروري تجاوزتها.. وهلم جراً حتى يصبح الناس أسرى دائرة مفرغة لا تنتهي قط، وهو ما يلائم تمام الملاءمة مجتمع الاستهلاك.

وفي الوقت نفسه فإن هذا الاستمتاع ما كان يمكن أن يتحقق لو لم يعمل الناس كالألات في المصانع في دقة بقدر ما تتال الإعجاب من الناحية الموضوعية، بقدر ما تثير الأسي من الناحية الإنسانية.. حتى أصبح التوتر داء العصر واصبح الاستمتاع مساءً علاجاً ضرورياً لكي يمكن إزالة التوتر صباحاً..

وقد صور كاتب مصري المجتمع الأوربي في إحدى فترات ازدهاره التجاري ورخائه الاقتصادي، فبعد أن تحدث طويلاً عن مظاهر هذا الرخاء من تعدد أنواع السلع الخ... قال:

"ولكن الأوربي رغم ذلك رجل غير سعيد، والأهواء الاجتماعية التي تعانيتها أوربا تذهب بجانب ضخم من ثمرات الرخاء، فإن الأوربي الذي يعمل من الثامنة صباحاً إلى الخامسة أو السادسة بعد الظهر - عدا ساعة أو ساعة ونصف للغذاء - لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ووقته حتى تحل ساعة النوم. ملل ويأس ثقيلان يبهضان أكتاف أولئك الناس ساعات بعد ساعات، والوسيلة الرئيسية لمحاربة الملل عندهم هي الشراب، ولم تكثر البارات ومتاجر الخمور في أوربا كما كثرت اليوم، وبلغ من اتساع توزيع بعض الأصناف كالويسكي والكونياك والشمبانيا والأنبذة العادية أن الشركات تلجأ إلى تحضيرها كيميائياً لمواجهة الطلبات المترامية، وإذا لم يطلب الإنسان ماركة معينة فإنهم يقدمون إليه تركيباً كيميائياً له نفس الطعم واللون والرائحة والفعل أيضاً، ويندر أن يخرج رجل أوربي من عمله إلى بيته دون أن يمر على البار أو المقهى أو النادي ليحتسى بعض الكئوس، وفي أحيان كثيرة يمتد الاحتساء إلى ساعات متأخرة، وهذا يجر إلى ما لا مفر منه من رذائل أخرى.. وفي ألمانيا وإنجلترا بالذات - وبخاصة لندن - اتسع مجال الرذيلة واستشرى، وفي تحقيق بشع نشرته الباربي ماتش من ثلاثة شهور تبين أن إيراد الدعارة يزيد على إيراد أضخم الشركات الفرنسية، وفي باريس وحدها ٦٠٠٠ مومس يربحن في السنة أكثر مما تربح شركة رينو للسيارات. وفي اليابان - حيث يسير الرخاء الاقتصادي مع الأمراض الاجتماعية جنباً إلى جنب - تصل أرقام تكاليف التسلية إلى مبالغ خيالية، فهناك - في طوكيو على سبيل المثال - ملهى ليلي واحد (من كثير) هو الميكادو وتعمل فيه ألف فتاة بين راقصة ومضيفة، وإيراده في الليلة الواحدة مليون ونصف مليون دولار.<sup>(٢)</sup>

ولم يتحدث الكاتب عن انعكاسات هذه الحالة على الفنون والآداب، فحالة الخواء والتوتر والملل دفعت إلى صور من السلوك "اللامعقول" والشذوذ ووجد العواطف والمشاعر حتى تتحرك فبعد أن كانت صالات

٢. الأهرام - أوربا تعود من الأجازة" للأستاذ حسين مؤنس. عدد ١٣/١٠/١٩٦٦.

الموسيقى تبطن جدرانها بمواد تمتص الصوت فإنها عمدت إلى تبطينها بالألمونيوم ليضعف الصدى، وأخذت الأفلام تقترب بدرجات من العرى حتى جاوزته وأصبحت ممارسات جنسية، ومشاهد يؤخذ معظمها في حجرات النوم، وانتقلت العدوى إلى المسرح، فأصبح الممثلون يظهرون عراة على المسرح.. وأصبحت المخدرات داء عياء ومرضاً عضالاً في الولايات المتحدة، وظهرت تلك الفئات الشاذة التي تجمع الشباب الضائع التائه، وتحمل أسم "الهيبيز" أو "البيتلز" أو غير ذلك..

تلك هي انعكاسات أمل الاستمتاع المنشود أما انعكاسات قضية التقدم الفني والإنتاجي، فلم تكن أقل مأساوية، فبقدر التقدم.. بقدر ما تظهر المشاكل الجديدة.. فهناك الانفجار السكاني الذي يهدد الأرض بأن تضيق بسكانها، وفي الوقت نفسه الذي يبذل فيه علماء البيولوجيا الجهود لإشاعة الوسائل المقيدة للنسل، يعمل الأطباء بكل همة لتحسين الصحة وإطالة الأعمار!

وظهرت مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية وتلويث البيئة تلويثاً وصل إلى أعماق البحار والآثار السيئة للإشعاعات التي أصبحت قوام صناعات عديدة، وقضى التقدم التكنولوجي على المنشآت الصغيرة، وجعل الهيئات الممردة وحدها هي التي تستطيع البقاء، فكأنما أعاد مرة أخرى عهد "الديناصور" والوحوش العظيمة وابتلعت هذه المنشآت الضخمة ليس فحسب الفرد، بل وأيضاً المنشآت الصغيرة والمتوسطة وقضت قضاء مبرما على الحرية الفردية، وأصبحت أخص خصوصيات الفرد مهددة بعيون تليفزيونية وآذان إلكترونية لا ترى ولا تحس.

وسرى التقدم التكنولوجي إلى صناعة الأسلحة التي بدأ منها، أو بفضلها أول مرة "إذ كانت الحرب العالمية الثانية هي القابلة التي أشرفت على وضعه" فظهرت أنواع من الأسلحة الرهيبة التي تقشعر لها الجلود من أسلحة ميكروبية إلى أسلحة ذرية إلى أسلحة هيدروجينية وتبارت الدول الكبرى في صنعها والدخول إلى "النادي الذري" وأوقف ذلك كله العالم على شفا الانتحار النووي.

ولم يقف المسئولون عن إصلاح المجتمع الأوربي مكتوفو الأيدي.. وحاولوا العلاج بكل الطرق التي تصورها..

حاولوا الإصلاح عن طريق الفنون والآداب ولكن الفنون نفسها أصبحت آلية، أصبحت صناعة، ولم تخضع فحسب لكل سوءات وضرورات الصناعة، بل أصبحت داعية وخادمة الصناعة ووسيلتها إلى التأثير والتضليل، كما هو الحال في الصحافة والسينما، وهما أكبر وسيلتين تشكلان الرأي العام، وقد جعلتهما الصناعة مسخين دميمين- بل شيطانين مدمرين للخلق ولمقومات وشخصية الفرد، وبذلك أصبح الدواء.. هو الداء..

حتى الفلسفة أعلا الثقافات وأسمائها وأكثرها استعصاء على الاستغلال وأقلها تأثراً بالأوضاع، رأت أن عليها إما أن تسهم في المزداد.. أو أن تعتصم بأبراج السكون..

وقد يصور تخطيط أوربا في تلمس العلاج، وأنها في النهاية، وبعد اللف الطويل تعود إلى الداء لتلتمس منه الدواء أن المستر ويلفرد جنكس المدير العام لمكتب العمل الدولي قدم إلى الدورة السابعة والخمسين لمؤتمر العمل الدولي (يونيه ٧٢) تقريراً يعد وثيقة رهيبة عما وصل إليه إفساد التقدم التكنولوجي للبيئة

وإهداره للحريات وإثارته للقلق بين فئات المجتمع وأنه أوقف البشرية على مفترق الطرق ما بين الحياة أو الانتحار وأن الرد "لن يتوقف على المهارة.. ولكن على الحكمة..".

ومع هذا.. فقد أطلق على تقريره عنوان "التكنولوجيا في خدمة الحرية" في حين أن الحرية هي سبب هذا البلاء. ومجد التقدم الصناعي وسبح بالآته وأعلن أنه "لن تكون هناك عودة إلى الطبيعة لإنسان العصر الحديث" واقترح أن يصبح التخلص من مخلفات الصناعة.. صناعة جديدة..

وليس تقرير مدير مكتب العمل الدولي إلا وثيقة واحدة من مئات الوثائق والكتب التي تخرجها المطابع صباح مساء. والكثير منها يصور ما يمكن أن تنتهي إليه الأمور لو أطلق عنان التقدم المادي والإنتاجي دون التحكم فيه وتوجيهه. وحسبنا أن نشير إشارة مقتضبة جداً إلى كتابين من هذه الكتب ليأخذ القارئ فكرة سريعة. أولهما كتاب الدوس هكسلي "العالم الجديد الشجاع"<sup>(٣)</sup> والثاني كتاب "جورج أوريل" ١٩٨٤<sup>(٤)</sup>.

والكتاب الأول يصور لنا العالم في المستقبل البعيد شيئاً ما، وفي هذا العالم "يصنع" الأطفال في معامل التفريخ، ويقسمون وهم أجنة أربعة فئات، وتكيف كل فئة بحيث تكون سعيدة وفخورة بوضعها- حتى ولو كانت الفئة الدنيا وبذلك لا يوجد صراع الطبقات. وهذا العالم مترف بفضل التكنولوجيا الحديثة. وهو يستخدم الطائرات والصواريخ وتشيع فيه الروائح العطرة والموسيقى التي تدغدغ العواطف. والعلاقات الجنسية مشاعة حرة- كالطعام والشراب" وقد نسي النساء عملية الولادة وأصبحت الكلمة تعبيراً بديلاً لذكرى قديمة مهينة. وشخصية الفرد تقنى في شخصية الجماعة، وليس هناك مشاعر عنيفة أو آم.. أو آمال.. أو فنون بالمعنى المفهوم وعندما يعتري البعض ضيق مؤقت فهناك حبوب "السوما" التي تكفل له أجازة سعيدة من الوعي تستمر مدتها تبعاً لعدد الحبات.

والكتاب على أعرابه، وعلى ما فيه من تجديد فإن الإضافة الحقيقية هي عرض مشاهد التقدم التكنولوجي.. أما أدبيات هذا المجتمع فالحق أننا نرى أصلها في جمهورية أفلاطون، وهناك خيط دقيق لا شعوري يربط هكسلي البريطاني بأفلاطون الأثيني فكل منهما يقسم دولته إلى طبقات راضية بقسمتها، والعلاقات الجنسية على الشيوع، وليس هناك انفعالات عنيفة، أو فرد مستقل. والمسئول عن هذا هو عدم تعرف المجتمع الأثيني على فكرة "الله" بالمعنى الإسلامي وفشل المسيحية المحرفة في أن تزود المجتمع الأوربي بها، لأن هذه الفكرة وحدها هي التي تستطيع أن تقدم السمو المعنوي الذي يجاوز، ويفوق، دائرة الاستمتاع وتعصم المجتمع من هذا الجنوح أو الفراغ، كما تحول دون ابتلاع المجتمع للفرد واستحواذه عليه جسماً وروحاً.

والكتاب الثاني يصور- كما ينم على ذلك اسمه- العالم سنة ١٩٨٤ حيث تنقسم السلطة في العالم ثلاث دول كبرى. وفي الدولة التي يتحدث عنها الكاتب يسيطر "الأخ الكبير" وفي كل البيوت توجد لوحة تدعى "الستار الناقل" وهي كشاشة التليفزيون تنقل إلى المسؤولين صورة كل ما يدور في الحجرة، ولا يمكن تعطيلها. ويقوم هذا العالم على التفكير المزدوج، أي الإيمان بالشيء ونقيضه وهكذا تكون الحرب هي السلم،

٣. وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان "العالم الطريف" دار الكاتب المصري.

٤. ترجمته إلى العربية دار الأديب - دمشق.

والحب هو الكره، والجهل هو القوة. وتكون وزارة الحب أشبه بقلعة تحوطها الأسلاك الشائكة. وقد محي الماضي من أذهان الناس ومن الوجود قاطبة..

وقد تبدو هذه التصورات كما لو كانت "خطرقات" أو هذيان سكير.. أو أضغاث أحلام.. ولكن الحقيقة أنها ليست بعيدة عن الحاضر لو ترك هذا العالم المجنون يمضى قدماً. وقد قال هكسلي إنه لم يفعل أكثر من أن سار بالتطور القائم بالفعل خطوات إلى الأمام، كما أن فكرة التفكير المزدوج والأخ الكبير ليس إلا امتداداً لديكتاتورية ستالين ولمسخ الشيوعيين لمبدأ "الجدل" ولجعله يقبل كل شئ حتى ولو كان يصاد نفسه. وكل من يقرأ كتابات "أرثر كوستلر" الشيوعي السابق عن "الأكروبات الجدلي" وكيف كان يطوع أشد المعاني استحالة لا يستغرب ذلك. ومن ثم يكون علينا أن لا نأخذ هذه التنبؤات مأخذاً سهلاً فقد تكون بالنسبة للحاضر أقرب مما كانت بوادر صناعة الطيران.. مما انتهى إليه الأمر فيها.. وإن كان كل ما يتعلق بالإنسان البشرية أو المجتمع الإنساني يكتسب تعقيداً لا يوجد في عالم الصناعة.

لا الفلسفة ولا الفنون ولا الآداب استطاعت أن توقف جائحة التقدم التكنولوجي وتيار الحضارة المادية وإجراء الاستمتاع حتى الانفجار أو الانتحار..

هناك قوة واحدة تستطيع ذلك..

**وهذه القوة هي الدين..**

ومأساة أوروبا ولعنتها أنها اضطرت لأطراح هذه القوة بالذات..

ولو سألتنا الأوروبي..

أيها الوحش الأشقر..

﴿ما الذي غرك بربك الكريم..﴾

الذي خلقتك فسواك فعدلك.. في أى صورة ما شاء ربك﴾

لكان الرد أن أوروبا لم تفهم من الدين سوى الكنيسة، والأكليروس، وما قدمه هؤلاء على أنه المسيحية..

ولم يكن ما قدموه مشجعاً على الإيمان..

فقد أقحموا في كتبهم الأسفار المحرفة لبنى إسرائيل أي ما يسمونه العهد القديم. وأصبح على المسيحيين أن يعرفوا نسب البشرية من نوح حتى آدم فرداً وأباً عن جد وأن يعلموا ماذا خلق الله في كل يوم من أيام الأسبوع حتى لحقه التعب فاستراح في اليوم السابع.. وأن يؤمنوا بكل الترهات والأقاصيص الجنسية والوحشية التي حفل بها العهد القديم. وكان هذا الإقحام، ومطالبة الناس بالإيمان به من أكبر الأسباب التي دفعت إلى الإلحاد وزعزعت الإيمان بالمسيحية ولم يكن هناك أي مبرر لهذا الإقحام حتى لو كانت ديانة خاصة باليهود أو كما جاء في بعض النصوص "الهداية خراف بنى إسرائيل الضالة".

وقدم الأكليروس لاهوتاً معقداً ثقيلاً لا يكاد يفهم عن الأب والابن والروح والقدس وعلاقة أفراد هذا الثالوث بعضهم ببعض فضلاً عن أفكار الخطيئة الأصلية والقربان والفداء والصلب.. الخ..

وادعت مسيحية الأكليروس تضاداً منفرداً وممزقاً ما بين الجسد والروح، وبالمثل فصلت ما بين الدين والدنيا ورفضت أن تبدى رأياً في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

وأهم من هذا كله أن الأكليروس قدم صورة مهزوزة لله، صورة إله إنساني، "ابن الإنسان" يصلب لأخطاء البشر وليس في هذه الصورة ما يغرى الناس بالخضوع لأحكامها أو النزول على تعليماتها.

وهذا هو السبب في أن أوربا تجاهلت المسيحية كقوة مؤثرة في الإصلاح أو مهيمنة على النفوس، لأن الإله الإنساني لا بد وأن يكون أسير التصور الإنساني، فينظر الناس إلى الله كأنه "إله ديمقراطي دستوري يتعاون معنا على قدم المساواة" كما ذكر مؤلف كتاب "فشل الوثني الطيب" ويستطرد الكاتب فيقول "إن أي واحد يقرأ المقالات الدينية التي تظهر عادة في صحف الأحد يألف تعبيرات مثل "إن ربي يجب أن .." أو "أنا لا أقبل إلهها يكون.."<sup>(٥)</sup> وتحدث آخر عن المسيحية الليبرالية "التي تحتفظ بكليات الدين وتهمل جوهره" وألف هذا الأخير كتاباً يثبت فيه "أن أعظم الأخطاء التي أرتكبها المجتمع البشري خلال القرون الأربعة الأخيرة، والنتائج الوخيمة التي ترتبت على هذا الخطأ هي أن الإنسان - وليس الله - وضع في صدارة الكون - ولن يمكن للحضارة أن تخلص من الكوارث التي تلاحقها إلا عندما تصحح هذا الخطأ"<sup>(٦)</sup>.

ومن المؤسف أن معظم المفكرين الذين لمسوا هذا النقص لم يستطيعوا التوصل إلى الحل، وداروا هم أيضاً في الحلقة المفرغة - لأن النور الوحيد الذي يمكن أن يهديهم في هذه المتاهة المظلمة هو الإسلام، وقد أحيط بستان حديدي آونة أو بطبقة سميكة عازلة من الدعايات المسمومة. بحيث أن الذين تنبهوا إلى أصالة الإسلام نظروا إليه من زاوية مغرضة، وقد يصور ذلك ما جاء في كتاب وضعه أستاذ بجامعة ليدز كإجابة لاهوتية على تحدي الإسلام "إن علينا أن نشكر الله لأن الهدف الذي من أجله أظهر الإسلام قد قارب - بعد ثلاثة عشر قرناً - التحقيق وأعنى به أن يوضح لنا خطأنا في فهم الإيمان الذي ندعو إليه، والناموس الذي نبشر به"<sup>(٧)</sup>.

ولكن المؤلف لا يشكر للإسلام هذا أو يعترف له بفضيلته "لأنه يرى "إن الحقيقة هي أن الإسلام من أول يوم حتى الآن، كان أعظم عقبة تجاه المسيحية والعدو لحقيقة المسيح".

نتيجة لرفض أوربا الصورة المشوهة التي عرضتها الكنيسة، ولجهلها للصورة السليمة التي يقدمها الإسلام أثر الإنسان الأوربي أن يكون الابن الحرام للصدفة الشرود عن أن يكون ولي العهد على عرش كذوبية مدعاة. فاعتقد في التطور، وتصور أن من الممكن أن تكون الحياة قد بدأت على الأرض عشوائية "عندما اندمجت منذ بليونين من السنين بعض الهنات البدائية الحية لتؤلف خلية، أي كيان دقيق يحتوى نواة معلقة في قطرة من سائل يحيط بها غشاء ونشأت عن هذا الحدث الارتقائي الضخم وبسرعة نسبية الكائنات الأحادية الخلية.

٥. فشل الوثني الطيب ص ٨٦.

٦. زهرة العشب ص ٨.

٧. رد ثيولوجي على تحدي الإسلام ص ٧.



وعلى ممر القرون على هذه الخلايا التي أخذ بعضها يختلف عن بعض فيما يكتسب من خواص رأت أن من الخير لها أن تأتلف على مبدأ "تقاسم العمل" حتى يكمل بعضها بعضاً من حيث الخصائص التي تنقص كل منها فرادى. وبهذه الطريقة ظهرت إلى الوجود طلائع الكائنات المتعددة الخلايا "

ومرة أخرى استطاعت هذه الكائنات أن تتغلب بمرور ملايين السنين على عقبات عديدة بعضها يتعلق بالأكسجين وبعضها يتعلق بالقلب أو المخ أو الأعصاب حتى أمكن أخيراً أن تظهر أدنى الكائنات الحيوانية. ومرة ثالثة، رحلة طويلة عبر ملايين السنين أيضاً من أدنى الكائنات الحيوانية حتى أرقاها- الإنسان<sup>(٨)</sup> .

آثر الإنسان الأوربي كل هذه الرحلات الافتراضية الطويلة الملايين من السنين، في ظلمات الغيب، يلفها الغموض من كل ناحية، ولا تتقدها أو تكمل لها المسيرة إلا الصدف أو الفروض لأنها كانت -رغم كل هذا- أفضل من التثليث المسيحي، ولأنها أقرب إلى الاحتمالات في حين أن التثليث المسيحي أقرب إلى الاستحالات. وقد لخص هذه المحنة التي ابتلى بها الضمير الأوربي تلك المناظرة المشهورة ما بين هكسلي وويلبر فورس عن التطور العلمي والخلق المسيحي، ففي المناظرة سأل ويلبر فورس هكسلي.. أي نوع من القروء قد تحدر منه؟ فأجاب هكسلي إنه يفضل أن يكون قرداً عن أن يمسخ الحقيقة.

**وعندما أخذ الإنسان الأوربي بالتطور بدلا من الخلق.. كانت تلك هي البداية في حياته الحديثة. لقد استعاد حريته الوثنية القديمة التي ورثها عن اليونان والرومان وأصبح إلهه هواه. وانطلق فاتحاً كل أشرعة الرغبات والأهواء والنزوات والإرادات وطلعات العقل والقلب ليرتاد المحيطات السبعة..**

**وفي النهاية وجد انه يدور حول نفسه وأنه أصبح يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش.. وان كل كفاحه النبيل قد حصر ما بين الإنتاج والاستهلاك..الذين يفرضان عليه أن لا يفتن.. وأن لا يشبع...**

وكما أشرنا فإن هذه هي مأساة الإنسان الأوربي وهي مأساة كان يمكن أن لا تحدث لو تعرف على الإسلام حق التعرف.

ذلك أن الإسلام لم يُحمَل أتباعه، بادي ذي بدئ بأوزار الضلالات السابقة، ولم يضم إليه أسفار اليهود أو أناجيل المسيحيين لأنه يؤمن أن يد التحريف قد شوهتها ومسختها، ولأن الأديان السابقة كلها أديان مرحلية أو خاصة بشعب دون شعب. فاكتفى بالإشارة الكلية والموضوعية إليها ثم أصدر حكمه الجامع ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وبذلك يدخل المؤمن حراً من الخرافات والتخبطات التي سودت صفحة الأديان القديمة..

ولم يتقل الإسلام المؤمنين بلاهوت معقد لا يستقيم مع الفطرة ولا يمكن للفرد العادي أن يفهمه بسليقته وطبيعته وإنما لابد أن يُعرَف به.. وان يسقاه جبراً حتى وان لم يسغه...

وجود الله في الإسلام قضية فطرية يمكن لكل واحد أن يهتدي إليها بمثل ما اهتدت به الجارية التي جاء بها صاحبها إلى النبي ﷺ ليمتحنها فسألها النبي أين الله؟ فقالت في السماء.. فقال النبي إنها مسلمة ...

أما وجود الله في المسيحية فهو حدث لا بد إن يُعرّف به الإنسان من مصدر خارجي. وبدون هذا المصدر الخارجي لا يعرف علاقة الأب، بالابن، وعلاقة الابن بالروح القدس فضلا عن وجود هذا الثالوث..

ولم يدع الإسلام تنافراً بين الروح والجسد بل قال إن لجسدك عليك حقاً، وأباح الطيبات من الرزق واثاب على الاستمتاع الحلال بها ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ \* قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبَغِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ وحث على الزواج، وبرئ تماماً من عقدة الخطيئة. ولم يتطلب الإسلام في الاستمتاع بهذه الطيبات سوى القصد والالتزام بالحدود الموضوعية وهو جزء من الخط العام والطابع الأساسي للإسلام: العدل.

وبالمثل لم يفصل الإسلام بينه وبين المجتمع وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إنه رأى أنه لا يمكن إصلاح الفرد في ظل أوضاع فاسدة وهو لا يقر كلمة مثل "دع ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله" لأن قيصر وما يملك، والكوكب الذي يعيش عليه والنجوم كلها والسموات في قبضة الله، ومن ثم فقد وضع القواعد الأساسية لصالح المجتمع ولتحقيق العدل فيه..

### وأهم من هذا كله...

أن الصورة التي قدمها الإسلام لله، والتي أراد بها أن يعين الفطرة السليمة حتى لا تتحرف بها الأهواء كانت من القوة والكمال والشمول والتجرد والموضوعية والحياة بحيث تلزم الفرد الامتثال والالتزام. وقصارى ما يمكن أن يقال عنها هنا- لأننا سنعود إلى هذه النقطة عند الحديث عن عقيدة الإسلام- أن هذه الصورة ترضى الجماهير وتفتح الفلاسفة، وان فيها أقصى الكمال الموضوعي والمطلق جنباً إلى جنب أقصى درجات الحياة والإرادة والقوة. وان العقول تهتدي إليه بحاستها.. دون أن تدرك كنهه أو تبلغ شأوه.

والدليل الذي يسوقه الإسلام للبرهنة على وجود الله. وصفاته الباهرة. هو آياته وخلقه ومشاهد الحياة والموت والسموات والإسلام والحيوان والنبات والنجوم والنظام العجيب الذي يضمها جميعاً. وما من كتاب سماوي آخر يسامى القرآن في بعده عن الأفاصيص الذاتية أو التفاصيل أو المحاولات اللاهوتية وتركيزه على المشاهد الكونية. وقد ذكرت كلمتا السماء والأرض ومشتقاتهما في القرآن حوالي ٧٦٥ مرة.. في حين ذكرت كلمة الله ٩٨٠ مرة.

وهذا الاستدلال إلى جانب أنه أقوى استدلال يمكن أن يساق في هذا الصدد، فإنه يكفل نوعاً من معايشة هذه الأكوان الشمسية والممالك الحيوانية والنباتية التي خلقها الله وجعلها أمماً مثلناً تسبح بحمده وسخر بعضها لنا وكتب علينا الإحسان نحوها.

وفي النهاية، فإن الإسلام لا يجعل الحياة تنتهي بالموت. إن هذه الحياة هي الحياة الدنيا، وهناك الحياة الأخرى الباقية.. وبرهان القرآن عليها هو نفسه برهان الخلق. فمن يستطيع الخلق بادئ ذي بد. يستطيع البعث بعد الموت. ولم يعن دين من الأديان بهذه القضية كما عنى الإسلام، والإيمان بها لا يجعل الموت

شبحاً مخيفاً رهيباً.. ولا الحياة عبثاً أجوف لا معنى له. إنها كلها ترتبط بالمعاني الكبرى التي يعرضها الإسلام.. سواء كانت خاصة بالمجتمع الإنساني أو قضايا الخلود والإرادة الإلهية...

بهذه الوسيلة يوجد الإسلام غائبة إلهية للوجود إنسانياً وكونياً وتعايشاً ما بين الإنسان وبيئته، وسلاماً ما بين النوازع التي تسيطر على النفس، وعدلاً في المجتمع، وعالمية بين الأمم التي تجمعها عقيدة الله.. ولا يتصور مع هذا أن يحس الإنسان ضياعاً أو اغتراباً.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا الوجود الإسلامي والسلام الذي ينشره الإسلام في النفس والمجتمع لا يتميز بسلبية عقيدة كما هو في الحضارة البوذية والهندية ولا بعدوانية كما في الحضارة الأوروبية. ولكنه يتسم بديناميكية ما بين الخير والشر، والإسلام يؤمن بإمكان انتصار الخير، إذا تحكّم الإنسان في نوازه.. وسلك النهج الذي رسمه الله له..

وقبل أن ننهي هذا الفصل الذي وجدنا فيه أن التقدم الأوربي بكل منجزاته لم يكف لإسعاد البشرية، وأن له انعكاساته الخطيرة التي تهدد مصير الإنسانية.. فهناك شبهتان لا بد من تفنيدهما...

**الأولى** أننا لا نعارض ولا نضيق بالتقدم المادي ولا ننكر فضله العميم على الحياة من مقاومة للأمراض وتحسين ظروف الإسكان والانتقال والاتصال وإشاعة الثقافة من كتاب أو سينما أو تليفزيون الخ.. إن الجمال، والأناقة والزينة والاستمتاع كلها من النعم التي نشكر الله عليها. وهي من خصائص الحياة الإنسانية، ومما أباحه الإسلام للمؤمنين.

إن محل النقد أمران: الأول السرف والشطط واطلاق العنان للنزوات بحيث يجاوز التقدم حده وينقلب إلى ضده، وإساءة استخدام هذه النعم أو استغلالها في الشر. **والثاني** أن التقدم المادي وحده لا يكفي أبداً لملاءمة الحياة الإنسانية.. فالاستمتاع بمفرده لا يوجد إنساناً، ولكنه يوجد حيواناً مترفاً.. وبحق قارن القرآن بين هؤلاء المتمتعين والحيوان.. ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ ولا تتأتى الإضافة المطلوبة بالنسبة للجماهير والجماعات والحقيقة الكلية بالفنون أو الآداب أو الفلسفات فقد أضحنا إفلاسها وقصورها ولكن **بالدين وحده الذي يلمس الروح..** ويربطها بالسماء، وبالله رمز الموضوعية والحقيقة المطلقة والكمال الأسمى.. والقوه المبدعة والخالقة. وبقدر ما يحتفظ الدين بأصالته وبيئته عن التحريف بقدر ما يحقق رسالته الفريدة. وهذا ما لم يتوفر إلا للإسلام بالذات. وأي دين لا يعترف بالإله الأعظم المطلق ولا يقوم عليه يكون لعبة في يد الإرادة الإنسانية بضعفها وقصورها، وأي دين لا يرتب ثواباً وعقاباً في عالم آخر على ما يفعله الإنسان في الدنيا لا يستحق أن يسمى ديناً، لأن الاشتقاق اللغوي لكلمة "دين" يتضمن الجزاء... وأجدر بمثل هذا الدين أن يسمى نظرية، أو مذهب أو أي تعبير آخر.

**والشبهة الثانية** أن المجتمعات العربية مجتمعات متخلفة وأن معظم سكانها يعيشون تحت مستوى الحاجة، ويقضون حياتهم في معاناة قاسية وحرمان مهين، ولا يزال الشوط أمامهم طويلاً قبل أن يصلوا إلى التقدم المجنون أو المحموم الذي وصلت إليه أوروبا التكنولوجية. ونحن نسلم بهذا، ونؤمن أن على الشعوب والمجتمعات العربية أن تشمر عن ساعد العمل... مع ذلك فإن من المهم جداً أن نضع ما جاء في هذا الفصل نصب أعيننا، لأن البريق المتألق والفتنة الأخاذة للحياة الأوروبية وما تحفل به من مغريات ومظاهر تجعل هذا النوع من الحياة مثلاً أعلاً للمتقنين العصريين ويورثهم ذلك شعوراً بالنقص تجاه حياتهم وأوضاعهم، وليس هناك ما هو أسوأ من أن نجمع ما بين الفاقة المادية والمهانة النفسية، وهذا حاصل الآن، والشاهد عليه هذا

الجنون بالمستوردات والإقبال على الأفلام والأغاني والموسيقى الأجنبية رغم بعدها عن لغة وذوق العربي والتهافت على الرحلات واعتبار السفر إلى أوروبا... كالسفر إلى الجنة.

فإذا تفهمنا هذا الفصل فسنضع الحضارة الأوربية موضعها السليم. وسنعترف لها بحسناتها، كما سنلم بسوءاتها. وسنعلم أنه وإن كان علينا أن نعمل بجد وحرصاً لتحسين الظروف المادية، إلا أن نمط الحياة الأوربية ليس بالنمط الذي يرتضيه، فضلاً عن أن يتمناه، المسلم. فالمسلم لا يغبط الأوربي على آلياته، وما يأكل أو يشرب أو يستمتع. وبقدر إيمانه القلبي بالإسلام بقدر ما يكون رثائه للأوربي، لأن مثله الأعلى أعظم من الأكل والشرب والاستمتاع. إنه تنمية ملكات النفس من خلق.. وعدل. وأمانة وقصد، وأن يصل نفسه بذلك العالم العلوي النبيل - عالم الله - بالفكر والتأمل، وبقدر ما يحقق المسلم ذلك بقدر ما يفضل الأوربي في مقاييس "السوبر مان" الحقيقي وبقدر ما يكتسب ذلك، السمات الخاص به، وبقدر.. ما يتفهم هذه الآية ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ٥٨ يونس.

\*\*\*

وخلاصة الفصل أن المجتمع الأوربي عندما جعل التقدم المادي وحده هدفه حقق بالفعل ثورة في رفع مستوى المعيشة والاستهلاك والاستمتاع، ولكن ذلك نفسه جعله لا يشبع قط، فلا ينتهي من تقدم حتى يبدأ في آخر وأوقعه ذلك في حلقة مفرغة جعلته عبدها الدائم لا سيدها الحاكم، كذلك حكم عليه بأن يكون سياق هذا التقدم حثيثاً بل محموماً بحيث أصبح التوتر داء العصر والسرعة طابعه الأساسي. وأدى هذا بدوره إلى نوع من السطحية - فلا يكاد الفرد الحديث مثلاً يقرأ قراءة جادة، لأن القراءة الجادة ليست استمتاعاً، فهي ليست هدفاً، كما أنها تستغرق وقتاً طويلاً وبذلك تخالف طابع العصر، فلا يُبقى عليها إلا بقدر الضرورة، وتحل محلها الأخبار الخفيفة، والمقتطفات المختصرة، والصور.

ومن العوامل الكبيرة التي دفعت المجتمع الأوربي الحديث إلى هذا الاتجاه تشويه الأكليروس الأوربي للفكرة السليمة لله، بما حرفة من تثليث وتشخيص للإله. فأبعد كل المفكرين عن الإيمان بالله، وهو نقطة البداية السليمة في الاتجاه واضطروا إلى أن يؤمنوا بالتطور الذي ليس له غاية مرسومة، وعندما فقدوا الغائية الإلهية، لم يعد سوى الغائية الإنسانية التي تتجلى في الاستمتاع. وبهذا بدأت الحلقة المفرغة التي يتخبط العالم الحديث فيها رغم ثرائه الفاحش، أو بسبب ثرائه الفاحش. ولو تعرف المجتمع الحديث على الإسلام وفكرة الله فيه لكان في ذلك إنقاذه، ولكن الأكليروس فرض حصاراً على الإسلام بحيث جهله المجتمع الأوربي الحديث..

إذا كان الأمر كذلك فلا يعقل أن ننع نحن الذين أنعم الله علينا بالإسلام في خطأ أوروبا المميت فنجعل التقدم المادي وحده هدفنا، وليس ذلك بعد أمر تفرضه العقيدة، ولكنه كذلك الحل الوحيد الذي يفرضه الواقع. لأننا لو جعلنا التقدم المادي وحده هدفنا، فلن نصل إلى المستوى الأوربي وفي الوقت نفسه سنخسر إسلامنا ومثلنا العليا، في حين أننا لو التزمنا بالإسلام حقاً، وبلغنا درجة وسطى من التقدم لأصبح مجتمعنا أفضل من المجتمع الأوربي، وذلك في دائرة الإمكانيات..

## الفصل الثاني

### لأن الإسلام أفضل صور الالتزام الاجتماعي

لابد لقيام المجتمع وبقائه وانتظامه من وجود صور من صور الالتزام يمثل لها الناس فتحدد الحقوق والواجبات، وتدور عليها العلاقات ما بين الفرد والجماعة. الجماهير والقيادات.. وتصبح في مجال العلاقات الاجتماعية كالعلة في مجال التعامل.. أو اللغة في مجال التخاطب.

وبقدر ما تكون هذه الصورة سليمة، واضحة، محددة بقدر ما يؤمن بها الناس ويحترمونها ويأخذون أنفسهم بها. وبقدر ما تمتد منطقة تطبيق هذا الالتزام بحيث تملأ العلاقات بين آحاد الناس أو فئات المجتمع مضيئاً ناعماً سليماً.. دون تضارب أو تخبط أو تضاد. ويكتسب المجتمع الاستقرار والانتظام...

وإذا كانت عقدة الالتزام مبهمة أو غامضة أو متعسفة أو فضفاضة فإن إيمان الناس بها يصبح عشوائياً أو اجتهادياً أو ظنياً ويتفاوت لدى مجموعة من الناس عما هو لدى مجموعة أخرى. ولا يكون هناك التحديد، أو النعومة أو المضي السليم.. وإنما الفوضى والتخبط والتضارب.. وتصبح البلد في مجال العلاقات كما لو كانت المجموعة تتحدث بلغات عديدة أو تتعامل بعملات مختلفة...

ولو استعرضنا صور الالتزام التي تقوم عليها العلاقات وتترابط بها المجتمعات فمن الممكن أن نميز بين ثلاث فصائل من الالتزام. الأولى الالتزام القسري والتقليدي الذي ساد العالم القديم. ويمكن أن يلحق به الالتزام الذي يسود مجتمعات النظم الشمولية. والثانية الالتزام القائم على فكرة الضمير الإنساني والثالثة الالتزام الناشئ عن الأديان، ونجد أسمى صورة له في الإسلام...

ففي المجتمع القديم لم يكن الالتزام مطلوباً إلا من مجموعات محدودة من المجتمع تترابط بفضل هذا الالتزام وتحكم بالقوة القاهرة المجتمع المفكك. وقد يصور هذا الالتزام الرباط الذي كان يربط الجندي الروماني بروما. فذلك الإيمان القوي بروما وسيادتها، وأنها لا تقهر، كان ينتظم الجيش الروماني قادة وجنوداً ويعطيه قوة وفدائية.. وبفضل هذا الجيش قهرت روما العالم القديم وأخضعته لحكمها وحقت سلاماً يقوم على السيف، فروح الالتزام التي تغلغت في أعماق الجندي الروماني، وما أنبتت عن هذه الروح من نظم كانت كافية لعدة قرون لضبط العالم القديم والإمبراطورية الرومانية..

ونجد مثالا آخر لهذا الالتزام العسكري في تلك الفرقة العسكرية التي ظلت رعب أوروبا حتى تحلل التزامها إلا وهي "الانكشارية" التي كانت تتكون من أطفال من مجهولي الأباء والأمهات يربون تربية عسكرية ولا يعرفون أباً أو أما أو التزاماً إلا الدولة.. وإلا الحرب في سبيل الدولة واستطاعت تركيا بفضل الانكشارية أن تكتسح أوروبا، كما استطاعت روما أن تكتسح العالم القديم بفضل الحرس البريتوري.

وفي القرون الوسيطة لم يعد الالتزام عسكرياً خالصاً. وإن احتفظ بطابعه القسري واتسعت دائرته إلى حد ما، فانتظمت مجموعات من الأهالي أو السكان، وليس الجيش وحده وأصبح يكتسب قوته لا من القهر العسكري، ولكن من التقليد المتوارث المعزز بالأمر الواقع.. وكان يأخذ شكل الاعتراف بالسيادة من الأصغر للأكابر وإضفاء الأكابر الحماية على الأصغر. فكان العامة يلتزمون بطاعة النبلاء والتسليم لهم

بالسيادة، وكان النبلاء يلتزمون بحماية العامة وتأمين معيشتهم، وبالمثل كان الأبناء يعترفون بسيادة الأباء ويعيشون تحت كفهم حتى بعد أن يتزوج هؤلاء الأبناء ويصبحوا آباء...

ويمكن أن نلحق بهذه الصورة من الالتزام القسري القديم صورة حديثة للالتزام قسري نجده في الدول التي تأخذ بالنظم الديكتاتورية الشمولية، ففي هذه الدول يوجد حزب وحيد حاكم يصبح بمثابة الحرس البريتوري بالنسبة لروما أو الانكشارية بالنسبة للدولة العثمانية مع تفرقة هامة هي أن هذين كانا يسلطان على الخارج أو يكلفان بالحماية العسكرية، في حين أن الحزب الوحيد الحاكم يكون حرساً أهلياً يعمل لحماية النظام في الداخل. وعضو هذا الحزب يربى تربية صارمة ويخضع لمران لا يقل عن الضبط والربط العسكري وينحصر ولاؤه في الحزب، وبهذه الطريقة يصبح التجسيد الحي لإرادة الحزب. يعمل لها ويكفل تطبيقها، ومع أنه يستخدم أساساً الإقناع والدعوة، إلا أن جانب القسر والإرهاب غير مستبعد، فهو البديل الوحيد، فعضو الحزب جندي مدني "على ما في ذلك من مفارقة" يعمل لغاية مذهبية في الداخل وليس للحماية العسكرية من الخارج.

ومن الواضح أن الحقيقة الأساسية في هذه الصور من الالتزام هي أنها لا تنظم كل الأفراد، وإنما بعض الأفراد، وأنها تعتمد على القهر والقسر سواء كان ذلك بطريقة صريحة معلنة أو بطريقة مضمرة مقنعة، وأنها بحكم الوحدة التي تنتج عن هذا الالتزام تكتسب قوة تمكنها من الهيمنة على الكثرة المفرقة والجماهير المشتتة.

وعندما بدأت ظروف الشعوب تتحسن وتساقطت القيود القديمة وانتشر التعليم وأخذت شخصية "الفرد" تتبلور، ظهرت فكرة "الواجب" الذي ينبع من إيمان الفرد بما يجب عليه القيام به بحكم هذا الواجب لا انتظاراً لثواب أو خشية من عقاب وأدى هذا إلى ظهور "الضمير الفردي" ونجد أفضل تمثيل لفكرة الواجب في كتابات الفيلسوف الألماني "كانط".

وتعمقت فكرة الواجب في المجتمع الأوروبي، وأصبحت محوراً من محاور التربية في المنزل والمدرسة، وتعود إليها أكثر من غيرها صفات الإتقان والإخلاص والدقة التي يتسم بها الأداء الفردي في المجتمع الأوروبي الحديث سواء قام بهذا الأداء ممرضة أو عامل أو مدرس أو أي مهني آخر. وأمكن بذلك لتلك الهيئة الضخمة المعقدة - المجتمع الحديث - أن تسير بكثير من النعومة والنجاح، فهناك أمانة في المعاملة وصدق ودقة في المواعيد ووفاء بالتعهدات إلى جانب التخلص من كل العقد ومركبات النقص التي تورثها التربية الخاطئة أو البيئة الذليلة الفقيرة..

ومع هذا فإن فكرة الواجب، والضمير القائم عليها تعرضت لهزات وتطويرات عديدة ومستمرة لم تكف بأن تنقص من أطرافه، أو من درجة الإيمان به.. ولكن أيضاً من صميم الفكرة نفسها ومنطقة اختصاصها.. وأساس قيامها. لأن الفكرة قائمة على أساس من فلسفة اجتهادية تخضع وتتطور تبعاً لعدد كبير من العوامل، فبعد فلسفة "كانط" التي تبنى الواجب على المبدأ، ظهرت الفلسفة النفعية التي تعيد الواجب إلى المنفعة، ثم فلسفة الذرائع "البراجماتزم" التي سلمت إلى حد كبير بأن الغاية تبرر الوسيلة، ثم ظهرت الفلسفة الاشتراكية التي لاشت - نظرياً وعملياً - الإرادة الفردية - وبالتالي الواجب القائم على الافتناع النفسي، ثم ظهرت كرد فعل لها الفلسفات الوجودية التي لا تعترف إلا بإرادة الفرد وحرية فيما يلزم نفسه به.

وانعكست هذه التطورات على فكرة الواجب، فأصابها بتدهور كبير قد يصوره ما انتهت إليه فكرة الواجب في بريطانيا- وهي أبرز بلد تقدر الواجب- من العهد الفيكتوري حتى الوقت الحاضر (قراءة مائة سنة). كما كان هناك مأخذ ووجه نقص في الفكرة نفسها تمثل في صور من المفارقات ما كان يمكن أن توجد لو كانت الفكرة كاملة وسليمة.

فالحق أن نقطة الضعف في الضمير الفردي هي نفسها مصدر قوته، وأعنى بها فرديته، فهذا الضمير ينبثق من الفرد نفسه، من فكرته عن التصرف الواجب سواء كان اتقانا أو إبداعاً أو إخلاصاً أو دقة. ولكن هذه الفكرة لا تقوم على عقيدة أو دين أو نظرية أو معيار موضوعي ينصب على العلاقات الاجتماعية. وبهذا التخريج وحده نفهم كيف ساغ للضمير الأوربي أن يرتكب تلك الكبائر والموبقات التي تتضمن فيما تتضمنه الاستغلال الوحشي للأطفال والنساء في مستهل الثورة الصناعية، والاستنزاف الرهيب لموارد وثروات المستعمرات، وما أوقعه الأوربيون من جرائم ومنكرات أسهمت فيها الشعوب الأوربية كلها حتى آخرها دخولا ميدان الاستعمار كإيطاليا وألمانيا طوال القرن التاسع عشر واستهدفت آسيا وأفريقيا على حد سواء، كما أن الإنسان يعجز عن أن يسيغ كيف أن هذا الضمير تقبل معاملة الأجناس الملونة معاملة مهينة. ووضع، لمجرد اللون، تلك الحواجز التي تحول دون تقدمها. وهناك فقرة حاول مفكر من أكبر المفكرين الأوربيين هو مونتسكيو أن يبرر بها استغلال الأجناس الأوربية. وجاءت في كتابه الشهير "روح القوانين".

"إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزوج عبيداً فأنى أقول إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بداً من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة. والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرية من أخصم القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً بحيث يكاد يكون من المستحيل أن ترثي لها، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى - وهو ذو الحكمة السامية - قد وضع روحاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - في جسم حالك السواد"<sup>(٩)</sup>.

وفي داخل المجتمع الأوربي نفسه تمزق الاضطرابات وحدة الشعب، وتوجد ما يشبه الحرب الأهلية الصناعية وتعرض عامة الشعب لصعوبات ومشاق لا حد لها وتهوى بالاقتصاد القومي. فإضراب عمال مناجم الفحم في بريطانيا الذي استمر بضعة أسابيع في النصف الأول من عام ١٩٧٢ شل الحياة تماماً، وأوقف القطارات والمواصلات وجعل الناس تعيش على ضوء الشموع! ثم أنتهي بتعويم الجنية الإسترليني. وإضراب عمال المواني في أواخر يولييه وأوائل أغسطس سنة ١٩٧٢ أوقع خسائر بواقع ١٢٠٠ جنية لكل يوم تقضيه كل سفينة شحن متعطلة. وقد عطل الإضراب خمسمائة سفينة على الأقل لمدة أسبوعين فضلاً عن خسائر الأخرى التبعية...

وفي أمريكا تنتشر الجريمة وتشتري وتأخذ الطابع التنظيمي الذي تأخذه الهيئات العامة، ومن هنا يطلق عليها "الجريمة المنظمة" أسوة بالنقابات أو الأحزاب أو الكنائس، فتوجد عصابات لها مجالس إدارات وفروع وأجهزة وهي تضع خططها بدقة مستعينة بالفنيين والخبراء، بالإضافة إلى الجريمة التلقائية والعشوائية التي وإن لم تكن في أهمية أو خطورة الجريمة المنظمة، إلا أنها زادت زيادة كبيرة مع زيادة

٩. الكتاب الخامس من الفصل الخامس. روح القوانين. استشهد بها الدكتور محمد عوض في كتابه "الاستعمار والمذاهب الاستعمارية" ص ٤١.

التصرفات اللامعقولة والشذوذ والسادية التي تضررها مشاهد العنف والتعذيب في الروايات السينمائية بحيث أصبح من العسير أن تأمن النساء السير بمفردهن في معظم المدن الأمريكية ليلاً. وأطلق على "المافيا" وهي كبرى عصابات الأجرام في شيكاغو "الحكومة الثالثة" بعد البيت الأبيض والمخابرات المركزية وأظهرت الإحصائيات أن معدل الجريمة في الولايات المتحدة سنة ١٩٧١ كالآتي:

حادث سرقة كل ٨٢ ثانية.

حادث قتل كل ٣٠ ثانية.

حادث اغتصاب كل ١٣ ثانية.

وليس ما هو أدل من الإضراب والجريمة على تدهور الضمير الاجتماعي، وأن الضمير الفردي إذا كان موجوداً فإنه لا يملك شيئاً في ميدان العلاقات...

بل إن الضمير الفردي قد عجز عن أن يكون أداة "تهذيب" بالمعنى الكامل، إذا لم يعصم الفرد الأوربي من الانغماس في عادات ضارة أو الاستسلام لنزوات شاذة أو التورط فيما يؤدي إليه ذلك من كذب أو نفاق أو تحايل بعيد، بل مضاد، لفكرة الواجب والضمير نفسها كما هو ملموس في السرف والشذوذ الجنسي والتعلق بعادات ذائعة الانتشار كإدمان المسكرات والقمار والمراهنات فضلاً عن المخدرات التي بدأت تدخل المجتمعات الغربية.

هذه كلها تتم على أن الضمير الفردي الأوربي لم يقم على أساس أصيل أو مطلق، وأن العوامل النفعية والفردية والنسبية غلبت الأسس المبدئية والعامّة فيه بحيث أصبح محلياً يختلف باختلاف مكانه. فالضمير الأوربي يعمل في المستعمرات بطريقة غير التي يعمل بها في أوربا. وهو في أوربا بالنسبة للعمال غيره بالنسبة لأصحاب الأعمال وهو بالنسبة للأبناء غيره بالنسبة للأباء بحيث يكاد أن يكون في حالات عديدة صيغة للمثل المشهور "أنا وأخويا على أبن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب" وهو ما يتفق مع ذاتيته وبعده عن الموضوعية والإطلاق وأنه في المحصلة الأخيرة، وإن كان إسهماً طيباً في عالم السلوك، إلا أنه يعجز عن أن يكون المحور الذي يدور عليه المجتمع.

ويختلف الالتزام الذي ينبع من الأديان السماوية عن الصورتين السابقتين للالتزام: صورة الالتزام القسري للقلة الحاكمة تجاه الكثرة المحكومة، وصورة الضمير الإنساني القائم على فكرة الواجب، لأن الالتزام في الأديان السماوية لا ينبع من فكرة يضعها الفرد نفسه، أو تفرضها القلة الحاكمة، ولكن من الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

فالإيمان بوجود إله سماوي (تفرقة عن الآلهة الوثنية) قوى، قادر، كامل يكشف عن المثل الأعلى ويعطى قبساً لما يجب أن تكون عليه التصرفات والأعمال والعلاقات والقيم، أو يكون كمرآة تعكس شعاعاً من أشعة تلك الشمس الباهرة ينم عن أصلها العظيم، وبقدر عبقرية الدين في تصوير الله، بقدر ما ينعكس ذلك الضمير. فإذا كان الإنسان لا يرى الله ومع هذا فإنه يلتزم بتعليماته... وينفذ توجهاته فإن هذا هو ما يوجد بذرة الضمير.

وبالنسبة للضمير بالذات. فإن للإيمان باليوم الآخر أثراً لا يقل عن أثر فكرة الله نفسها، حتى وان كانت فكرة اليوم الآخر مبنية على فكرة الله، لان إرجاء الحساب على الأعمال عقاباً وثواباً إلى يوم لا يأتي



إلا بعد الموت أبعد عملياً فكرة الثواب والعقاب طوال الحياة الدنيا وأضفى عليها الطبيعة المبدئية بقدر ما أبعد عنها الطبيعة النفعية (رجاء الثواب أو خوف العقاب) ووجد بذلك الضمير ومن ثم جاز لبريستد أن يطلق على تاريخه لمصر القديمة "فجر الضمير" لأن الديانة المصرية القديمة تكاد تكون الديانة الوحيدة التي تسامى الإسلام في الاحتفال باليوم الآخر والحساب والعقاب وهي الأولى والسابقة في هذا المجال..

ويستتبع بناء الضمير على فكرة الله واليوم الآخر، وليس على فكرة الواجب أو القلة الحاكمة، اختلافاً في طبيعة الالتزام الصادر عن كل منهما ينسحب على بناء ووظيفة ومنطقة نفوذ وتطبيق هذا الالتزام. فقد رأينا أن فكرة الواجب لم تستطع أن تثمر إلا ضميراً فردياً، لأن الأسس التي قامت عليها ذاتية ووضعية واجتهادية ولم تكن أبداً حتى في أفضل أيامها موضوعية كاملة الموضوعية، من أجل هذا ظهرت تلك العيوب الجسيمة في الضمير الفردي التي أشرنا إليها، والتي أبرزها عدم الشمول لجانب العلاقات والأوضاع العامة، وافتقاد الموضوعية الحقيقية وبالتالي تعرضه للتقلبات وتأثره بالتغيرات، وأخيراً فشله في مجاله الخاص - نفس الفرد- عن إيجاد وازع تهذيبي يقوى على صدور الشرور والأثام أو مقاومة إغراء صنوف الاستمتاع الشاذ التي سمحت بها فكره الحرية التي قام عليها المجتمع الديمقراطي، وأتاحها التقدم المذهل في صنع وإشاعة وسائل اللهو.

ويبرأ الضمير الذي يقوم على فكرة الله واليوم الآخر من هذه العيوب كلها. ونجد أفضل صورته لهذا الضمير، وبالتالي الالتزام، في الإسلام بالذات لما تيسر له من عوامل خاصة...

فكرة الله في الإسلام وصلت من الوضوح والقوة، والنقاء والكمال درجة لم يبلغها أي دين آخر على ما أشرنا إليه في الفصل الماضي، وما سنعود إليه في الباب القادم.

وفكرة اليوم الآخر لم تتعمق في دين سماوي كما تعمقت في الإسلام، وقد أوضحنا أن هذه الفكرة هي المسئولة عن تحويل مبرر الأداء من المبرر النفعي إلى المبرر المبدئي، أو العقيدى...

وعزز هذا التحويل أن الإسلام لا يعترف باكليروس ولا يبيح وصاية على الضمير من أي نوع وبذلك أصبح هذا الضمير موصولاً بالله مباشرة.

وأخيراً.. فإن الطابع الأساسي للإسلام هو العدل..

**وهذه نقطة تحتاج إلى بعض إيضاح..**

فمع أن الديانات السماوية واحدة في جوهرها، إلا أن إرادة الله التي اقتضت نزول أكثر من دين، وأكثر من نبي، اقتضت أن يكون لكل دين طابع رئيسي يمثل أصدق تمثيل للاحتياج الأساسي للذين نزل إليهم هذا الدين في الفترة المعينة لنزوله. فاليهودية مثلاً قامت وسط الوثنية المصرية العريضة، وأنزلت لبني إسرائيل المستعبدين، ومن هنا كان طابعها الأساسي هو "الصرامة" ليحول دون تأثير هذا الجنس الذليل بمظاهر الوثنية المصرية، أو يصاب بالاستخذاء أمام الاستعباد الفرعوني.. وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية أن تكون رسالة إنقاذ وتحرير..

ولكن بنى إسرائيل القساة المحرفين لم يخرجوا من نير الفراعنة إلا ليدخلوا في نير روما، الذي كان أقوى واعتي من النير المصري. ولزم الأمر تحريراً جديداً على يد المسيحية، ولكن بأسلوب مختلف استبعد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار.. لأن بطش الرومان فاق كل حد، وشمل الأرض بأسرها وقتئذ، وكان

الانتصار الممكن هو عن طريق اللاعنف الذي يأخذ أعلا صوره في "الحب"، ومرة أخرى انتصرت المسيحية بسلمها وحبها على الإمبراطورية الرومانية بسلاحها وعتادها.. وخيلها ورَجُلها..

أما الإسلام، فقد أملى الطابع الرئيسي له أمران: الأول الشمول الذي أتسم به الإسلام، وأنه يعالج كافة مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعبادية.. وأنه أنزل لكل الشعوب ولكل الأجناس. والثاني أنه آخر الأديان، فلا رسالة بعده. وقضى هذان العاملان أن يكون الطابع الرئيسي للإسلام هو العدل لأنه فضيلة الفضائل، والفضيلة الاجتماعية.. فضيلة الجماهير والقيادات.. وهو الذي يضع كل عامل في مكانه السليم.

فالصرامة التي اتسمت بها اليهودية لا تصلح إلا لجنس معين، في ظرف معين، ولكنها ليست مركب كل يوم.. وكل حال..

وفي الطرف المقابل - الحب المسيحي - إنه أيضاً حالة طارئة، أو مثل أعلا.. ولكنه ليس الدأب الدائم أو المعيار الذي تقاس به التصرفات أو تدور عليه الأمور.. ولا هو مما يمكن أن نطالب به الناس. ولو كان ممكناً، فليس هو بالمبدأ الأمثل لأنه يعتمد على ملكات العواطف والأحاسيس والمشاعر أكثر من ملكات التفكير النزيه المحايد.

وقد يذكر البعض مبادئ أخرى، كالحرية مثلاً، ولكن الحرية دون عدالة لا تعنى إلا انتصار الأقوياء سواء كانت هذه القوة قوة جسد أو مال أو حكم.. وسواء جاءت هذه القوة عن طريق الاستحقاق أو الإرث أو الحظ أو الحيلة أو الخداع.. وقد أظهرت تجربة المجتمع الأوربي للحرية سوءاتها في المجالين الاقتصادي والسياسي على سواء (١٠).

قد يقال "المساواة"، ولكن المساواة لا تكون إلا في الفرصة أو عند خط البداية، أما إذا سوينا بين الناس في كل شئ فسنتظلم البعض.. وسنحايي البعض، ولن يكون هذا من المساواة في شئ!

إن أي واحد يمارس العمل الإداري أو الاجتماعي أو السياسي. أو يلم بطبيعة النظم والنفوس البشرية يكاد يشعر بالتقزز عندما يسمع تلك الكلمات ذات الطنين الأجوف التي لا يراد بها إلا الاستهلاك المحلي أو استرضاء المشاعر أو التضليل والخداع، ويستبين صدق صيحة مدام رولان عندما اقتنيت لتعدم باسم الشعارات التي عملت لها: الحرية.. الإخاء.. المساواة.

### ليس إلا العدل.. وحده.

فالعدل هو التوازن في الفضائل، ووضع كل فضيلة في مكانها، أما أي فضيلة واحدة فإنها "طرف" في القضية الاجتماعية بكل ما في أي طرف من ميل أو اتجاه أو تحيز..

وقد يتصور البعض أن العدل يكون على حساب الحرية..

ولكن هذا لا يستقيم، ويكون نوعاً من المغالطة.

---

١٠. أنتهى تفكيرنا إلى أن العدالة أحوج إلى الحرية من حاجة الحرية إلى العدالة، والحرية في الإسلام مفترضة في مبدأ البراءة الأصلية الفطرية، وتأتى العدالة بضبطها..

لأن العدل يتضمن بدهاة العدل في الفضائل، فلا يتصور العدوان على إحداها. ولو حدث لما كان

عدلا.

من أجل هذا قلنا، وسنقول دائما، إن الرأي والفكر والعقيدة يقع في مجال الحرية..

أما الاقتصاد والإنتاج والأموال فتخضع للتنظيم وهذا ما نسميه بالعدل ويوجب القرآن اتباع العدل في أسلوب بلغ الغاية من القوة والوضوح ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ {١٥ الشورى}. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ {٥٨ النساء}. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ {١٨ المائدة}. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ {٩٠ النحل}. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ {٣ النساء}. ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ {١٣٥ النساء}.

وقد يستخدم القرآن كلمة القسط المرادفة للعدل وكأنما يريد أن يؤكد معنى العدل بلفظ آخر، وقد يستخدم تعبير "الميزان" ليصور عملية العدل. أو يضع معياراً دقيقاً غاية في الدقة "مقال ذرة" حتى يرسخ المعنى في الأذهان.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ {١٨ آل عمران}. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ {٤٢ المائدة}. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ {١٣٥ النساء}. ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ {٤٧ الأنبياء}. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ {٢٥ الحديد}. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ {١١٧ الشورى}. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ {٤٧ يونس}.

وأظهر من هذا في إبراز العدالة الاستتكار الغليظ للظلم، وقد تعددت استنكارات القرآن للظلم، وكافة مشتقات الكلمة - وبلغت هذه الاستنكارات أكثر من ٢٨٠ مرة. وكما سما الله عز وجل نفسه العدل، فإنه حرم على نفسه الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ واستبعد الظلم يوم القيامة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ وأعتبر الظلم معادلا للشرك وسببا في العذاب أو التحريم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتعددت الأحاديث النبوية في هذا المعنى "الظلم ظلمات يوم القيامة" اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" "عدل ساعة خير من عبادة سنتين عاما".

وهذه الإشارات كلها توضح أن العدل في الإسلام أعظم مما قد يفهمه البعض، إنه ليس عدالة اقتصادية، أو حتى عدالة الجزاء والحكم فحسب، ولكنه أساساً منهج في الحياة والطابع الرئيسي للإسلام الذي تتسم به كل الأوامر والنواهي والتصرفات الإسلامية بحيث تكتسب القصد والتوازن، وتبعد عن السرف والشطط في كل ناحية، حتى الدين نفسه ﴿فأوغل فيه برفق﴾ وحتى عندما لا تبدو هناك فائدة نفعية كالأمر بالاقتصاد في الوضوء ﴿وإن كنت على نهر جار﴾. وفي سبيل العدل حرم الإسلام كل صور الميول الشاذة

والمسرفة، وأغلق الباب على كل ما يفتح المجال للسرف والشطط فحرم الخمر والميسر لأن لهما سورة وضراوة تذهب بالقصد والاعتدال ولأن بابهما إذا فتح، فإن من العسير إغلاقه..

وأينما قلبت النظر في الإسلام وجدت معنى العدل غالباً على ما عداه، فهناك عدل حتى بين الأديان بعضها بعضاً، وهناك عدل ما بين الفرد والمجتمع، وعدل بين الدنيا والدين وعدل بين الرجال والنساء وعدل بين الأغنياء والفقراء والحاكمين والمحكومين، بل بالعدل قامت السموات والأرض، والله تعالى يسمي نفسه العدل.

قد يقول قائل إن نظرية العدل قديمة، نجد أصولها في فلسفة أرسطو. فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل. الخ.. والعقل هو الذي يعين الوسط. والنقص في هذه النظرية هو أن أرسطو - كمدرسة العقلين من فلاسفة الإغريق - أرجع تحديد الوسط إلى العقل، ومع أن ذلك يعين ولاشك على التحديد، إلا أن العقل في مجال الأخلاق والفضائل ليس الأداة الوحيدة أو المحكمة، فعقول الأفراد تتفاوت، وحتى إذا أدركت المكان السليم فإنها تعجز عن حمل الإنسان على الوقوف عند هذا الموقف، لأن الإنسان مركب من غرائز وعواطف وهو يعيش وسط مجتمع وظروف وبيئات متباينة تؤثر إلى حد كبير على العقل الفردي الذي ليس هو بالطبيعة أو الضرورة أخلاقياً. وهذا هو النقص الأساسي في نظرية المعرفة لسقراط، فقد اعتقد سقراط أنه ما أن يعرف الإنسان الخير والشر ويميز بينهما حتى يفعل الخير ويجتنب الشر. ولكن الحقيقة، كما هو معلوم، أنه لا يكفي قط أن يعرف الإنسان الخير والشر (إذا كان من الممكن أن يعرف تماماً) ليفعل الأول ويجتنب الثاني. ومن هنا كان من الضروري أن يضع الدين الأسس الموضوعية والدائمة للخير والشر وأن يكل إلى الضمير تعرف هذا الموقف وتفهمه، لأنه قد يكون أقدر من العقل على تلمسه والاهتداء إليه، ولم يكن عبثاً أن يستخدم القرآن كلمة قلب أو قلوب مكان عقل أو عقول ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ {١٧٩ الأعراف}. ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ {٤٦ الحج}. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ {٢٤ محمد}. وقد قال النبي ﷺ "الإثم ما حاك في صدرك" وقال "استفت قلبك وإن أفنوك وأفتوك".

من أجل هذا لا يدع الإسلام عملية "التعديل" أو الوصول إلى العدل للضمير الفردي وحده، ولا يتركها تائهة.. ضائعة، ولا هو يحدد نقطة الوسط الحسابية التي تلزمها استاتيكية جامدة، ولكنه يوجهها الوجهة التي تنتهي إلى العدل فعلاً ويضع على طريقها معالم تؤدي بها إليه.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يلطف هذا التحري للعدل بالحث على العفو عند الإساءة، وقبول التوبة عند الندم على المعصية، والزيادة على ما يوجب العدل، والرحمة عند القدرة. وهي كلها تلطف من صرامة العدل عندما يتطلب الأمر ذلك. ولكن الإسلام لا يفرض فرضاً هذا الفضل لأنه لن يصبح فضلاً، ولكن عدلاً، ولن يكون لمن يؤثره الميزة الخاصة المستمدة من تجاوزه لدائرة العدل احتساباً وقربى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..﴾ {٤٠ الشورى}. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ {٢٣٧ البقرة}. ﴿وَإِنْ

تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ التَّغَابُنِ. ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿٣٠﴾  
فَاطِرٍ. ﴿وَلَا يَأْتَلُ وَلَا يَأْتَلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ النُّورِ.

وهكذا نرى أن الإسلام يوجب التزاماً يجمع بين كل "الكَمالات" المتصورة فهو:

- ينبثق عن إيمان بالله واليوم الآخر، أي أنه يرد من مصدر يمثل الحقيقة الموضوعية والكمال والثبات ولا يقوم على أسس ذاتية، وضعية، متقلبة.
- وفي الوقت نفسه فإن هذا الإيمان ليس مفروضاً بقوة قاهرة أو سلطة خارجية ولكنه الاقتناع والاختيار والتطوع.
- كما أن طابعه الأساسي هو العدل، وهو أصدق وأفضل طابع للالتزام الاجتماعي.
- ولما كان للإسلام مثله العليا، فإنه يحث على العفو سلباً، والفضل إيجاباً. أي الارتفاع درجة فوق مستوى العدل، وبذلك يفتح الباب أمام الذين دائماً يؤثرون الفضل دون أن يكون هناك لوم على الذين لا يسمحون بغير العدل.

## الفصل الثالث

### لأن الإسلام أبرز مقومات الشخصية العربية

كان المبرر الأول الذي أوردناه للإيمان بالإسلام هو أن التقدم المادي لم يحقق لإنسان العصر الحديث السعادة المنشودة، بل إنه أشعره الغربة والضياع وجعل معيشته قسمة ما بين توتر الإنتاج واجترار الاستمتاع وقضى على سلام نفسه وغائية وجوده، ولا شفاء لهذا كله إلا بإيمان يجاوز الاستمتاع المادي ويشبع التسامي الروحي ويربط الوجود المادي بعالم القيم ويحقق نوعاً من التعايش والتناغم بينه وبين الكون من أرض وسموات ونجوم ويصله بالقوة العظيمة الخالقة له.. والمهيمنة عليه، وهذا ما لا يتأتى في أفضل صورته إلا في الإسلام.

وكان المبرر الثاني هو أن الإسلام يقدم أفضل صورة يقوم عليه المجتمع. إلزام ينبع من ضمير حر لا وصاية لسلطة عليه. وهو في الوقت نفسه موصول بأكمل تصور ممكن لله. ويستمد طبيعته ومادته من دين جعل هدفه وطابعه "العدل" وهو الفضيلة الاجتماعية.. أو فضيلة الفضائل. وبذلك يتسم الالتزام الإسلامي بحرية لأنه ينبع عن ضمير، وسمو لأنه موصول بالله.. وتوازن لأنه مستمد من العدل...

وسنتحدث الآن عن مبرر ثالث أضيق دائرة من المبررين السابقين لأنه لا يعرض لإنسان العصر الحديث بصفة عامة. ولا يعنى بالالتزام بصفة مطلقة، ولكنه ينصب على المجتمع العربي بالذات. ولعل هذا المبرر على أنه أضيق الثلاثة -أو لهذا بالذات- أن يكون أهم المبررات في الفترة التي نحن فيها، والتي تمر فيها الأمة العربية بفترة من الفلق الانتقالي، والفراغ المذهبي.

ومن البداهة المعروفة أن الأمة لا تكون أمة إلا عندما تتوفر لها شخصيتها الخاصة بها والمميزة لها، وأن هذه الشخصية بدورها تتكون من مجموعة "مقومات" تكون بمثابة القسمات والمعالم التي تميز شخصية عن أخرى.. وشأن الأمم في هذا شأن الأفراد، بل الأشياء أيضاً.

إن ركماً متناثراً من الأحجار لا يمكن أن يسمى بناءً، وإن مسيلاً ضحلاً دون عمق أو غاية لا يمكن أن يسمى نهراً، وإن ثلاثين أو خمسين مليوناً من الأفراد.. لا يمكن أن يكونوا أمة

لابد للأحجار أن تشذب وتهذب وتأخذ شكلاً واحداً ثم يحفر لها أساس ويرتفع على هذا الأساس وطبقاً له أدوار متماسكة.. حتى يتكون ما يسمى بناءً. ولابد أن يكون للمياه منبع تنبع منه، ومصب تصب فيه ومجرى تنحته وتعمقه يوماً بعد يوم في سطح الأرض حتى يوجد النهر، ولابد أيضاً من مقومات تميز الثلاثين أو الخمسين مليوناً وروابط تربطهم وتوحد بينهم حتى يصبحوا أمة واحدة، وليس مدلولاً حسابياً...

وما هي هذه المقومات..؟

لقد ارتأى علماء الاجتماع أنها وحدة الأرض والجنس واللغة والدين والمصلحة والتراث والتاريخ، ولكنهم يختلفون اختلافاً كبيراً حول أهمية كل عامل من هذه العوامل في تكوين الأمة ودرجة أولويته بين بقية العوامل. فذهب دوركيم ومجموعة من العلماء الفرنسيين إلى أن الدين هو محور الظواهر الاجتماعية وأهمها

على الإطلاق وذهب آخرون إلى أن ٧٥% من حضارة أي مجتمع يكون أساسها الدين. وممن يرون ذلك أيضاً توينبى الذي يؤمن أن العامل الذي يضم المجتمع في إطار واحد ليس الوحدة القومية أو السياسية أو الجنس، ولكنه عبادة مشتركة أو دين.

وذهبت المدرسة الألمانية إلى أن اللغة هي أبرز مقومات الأمة..

وادعت النازية أن الجنس، ممثلاً في الدم. هو العنصر الفعال في تكوين الأمة. وقاوم معظم العلماء هذا الرأي وفندوه وشنوا عليه غارة شعواء رغم أن صدى هذه النظرية لا يزال يتردد فيما تقوم به كل الأجناس الأوروبية والأمريكية من تفرقة عنصرية..

ولا ريب في أهمية "الأرض" فهي الوعاء الذي يضم الأمة، والتربة التي تنميها وتؤثر عليها. ومع هذا فقد وجدت مجموعات فقدت لسبب أو لآخر أرضها. ولكنها لم تفقد شخصيتها، أو حتى قوميتها، لأن عوامل أخرى كاللغة والدين والتراث القديم جمعت بينها، كما يحدث أن تتأثر الأرض تبعاً للمقومات وتخضع لها بحيث لا يستطيع الجبل الأشم أو النهر العميق أو الصحراء الشاسعة أن تقطع الروابط الأخرى، أي أن المقومات هي التي تحدد الأرض أكثر مما تحدد الأرض المقومات..

وهناك المصلحة المشتركة، ولكن المصلحة كثيراً ما تكون عامل تفريق لا عامل تجميع، فضلاً عن توحيد، فقد كانت مصلحة الولايات الجنوبية غير مصلحة الولايات الشمالية، وأدى ذلك إلى الانشقاق وكانت الحرب التي استمرت أربعة أعوام كاملة هي "البوتقة" التي وحدت الولايات..

فالمصلحة التي تجمع الأسرة هي نفسها المصلحة التي تفرق الأسرة بحيث يتركها الأبناء عندما يكبرون ويتزوجون..

ورأينا الخاص أن العامل الأساسي والأول في تكوين الأمة هو التاريخ، فالأمة تتكون تاريخياً أكثر مما تتكون جغرافياً أو جنسياً. أو مصلحياً، لأن التاريخ بمثابة بوتقة، والبوتقة هي التي تصهر الأحاد وتذهب الاختلافات وتخرج "سبيكة" خالصة.. لا تجد جزءاً منها يختلف عن جزء، لأن أي عنصر من عناصر الاختلاف قد ذاب في المجموع وذهب أثره المحدود في السبيكة كلها، وهو "أي التاريخ" بمثابة الجذور التي تمسك الشجرة، بقدر ما يمضى عليها الوقت، بقدر ما تتغلغل عميقاً في الأرض، ويصبح من العسير زرعها فضلاً عن اقتلاعها، وروح التاريخ الإنساني هي العقيدة الدينية، فهي بمثابة "المعامل" الذي تدور عليه، وبه أحداث التاريخ.

وبالنسبة للأمة العربية، فإن عمقها التاريخي يزيد على ألف وثلاثمائة سنة، هو تاريخها الإسلامي. أما جوهر هذا التاريخ فهو العقيدة الإسلامية، وما أثارته هذه العقيدة من قضايا سياسية واجتماعية وفكرية، وهو لا ينفي أن للأمة العربية قبل هذا عمقاً يكمن في منطقة اللاوعي، وهو بدوره لا يختلف عن التاريخ الواعي من ناحية أنه تكون تكويناً تاريخياً حول عقائد دينية كانت تمثل الصورة البدائية غير المصقولة أو المهذبة للفكرة الدينية.. وقد واصلت هذه العقائد التطور حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة، والكاملة في الإسلام.

هذا هو رأينا الخاص. ولكننا حتى لو أخذنا بأي نظرية من النظريات المختلفة في مقومات الأمة. فستكون نهاية المطاف الإسلام، وذلك لخاصية فريدة تميز بها الإسلام بالذات هي أنه كما سنرى جماع اللغة

والتاريخ بحيث يكون هو المبلور لشخصية الأمة العربية والمعامل لتاريخها وحضارتها.. وهو أمر لا يكاد يكون فرضاً يراد له الإثبات قدر ما هو حقيقة لا ينقصها إلا الإيضاح والتبيان.

ففى كل الدول العربية سواء كانت مصر القديمة أو فينيقية "سوريا" أو آشور أو بابل، أو حتى جزيرة العرب، كان الدين هو قوام المجتمع وجذره.. هو ملهم الفنان، هو مرجع التشريع، هو أصل السلطة، هو نبع السلوك والآداب والتقاليد.. وبحق قال شوقي:

### فإذا قيل ما مفاخر مصر قيل فيها إيزيسها الغراء

ولكن الدين في العصور القديمة على أهميته، وعلى أنه طبع خلال هذه المرحلة شخصية المصري، والأشوري، والفينيقي وكون "لا شعور" كل واحد من هؤلاء، فإنه كان بالنسبة للمنطقة كوحدة عامل تقريظ لا عامل تجميع، لأن آلهة المصريين كانت غير آلهة الفينيقيين، وآلهة هؤلاء كانت غير آلهة الآشوريين. ولم تتجح المسيحية في تصحيح هذا الوضع أولاً لأنها لم تضم كل سكان المنطقة. وثانياً لأن الوقت لم يفسح لها طويلاً، فقد تمسك المصريون القدماء وغيرهم بدياناتهم القديمة طويلاً ولم يكذبوا مؤمن معظمهم - وليس كلهم - بالمسيحية ويؤثرون فيها أكثر مما يتأثرون بها حتى فجأهم الإسلام. ومن الحقائق المعروفة أن المصريين تمسكوا بالديانات الوثنية وخاصة ديانة إيزيس حتى القرن الخامس بعد الميلاد. وعندما تلقت الوثنية المصرية الضربة المميتة بصدور مرسوم الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥ م) بحظرها، وانهاك بطريك الإسكندرية توفيلاس واتباعه على المعابد، وتفرق الكهنة المصريون في البلاد، وخاصة الجنوب حيث وصلوا عبادتهم القديمة وبقي تمثال إيزيس قائماً في جزيرة فيلية في حماية أسلاف النوبيين حتى تمكن أسقف أسوان تيودورس في حكم الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) من تتكيس الصنم وتحويل المعبد إلى كنيسة (١١) فلم تكن المسيحية بالراسخة عندما جاء عمرو بن العاص إلى هذه البلاد سنة ٦٤٠ أي بعد مائة سنة فحسب من سقوط آخر قلاع الوثنية. فضلاً عن هذا فإن انشقاق المسيحية إلى مذاهب قبل، وبعد، مجمع نيقية في أوائل القرن الرابع الميلادي. أدى إلى احتدام الصراع بين المناطق المسيحية تبعاً لمذاهبها فكانت المسيحية عامل تفرقه لا عامل جمع، وكان الإسلام - وحده بين كل الأديان - هو الذي جمع ووحد هذه المنطقة وصدق الله تعالى ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ديناً ولغة وتاريخاً. وتلك يد للإسلام على هذه المنطقة خاصة تميزه عن بقية الأديان. بحيث يكون إطلاق كلمة دين على الإسلام ظلماً وتجاهلاً لخصائصه الفائقة التي لم تتح لغيره.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام لم يكن فحسب الدين الجامع لكل سكان المنطقة الذي صدر عنه التاريخ المشترك ونبعت منه اللغة الواحدة، ولكنه أيضاً أقرب الديانات إلى جوهر الديانات القديمة للمنطقة، أو على الأقل أهم هذه الديانات - أعنى الديانة المصرية القديمة - فإذا استبعدنا ظاهرة تعدد الآلهة وتجسيمها التي تعود إلى أسباب محلية أو شكلية أو مرحلية، فإن جوهر الديانة المصرية هو الخلود والحساب والعقاب بعد الموت.

١١. أنظر سندباد مصري تأليف الأستاذ حسين فوزي ص ٢٦٦



ولم تكن ديانة من الديانات القديمة بذلك عناية الديانة المصرية القديمة. ففي النقوش التي تغطي جدران المعابد، تظهر صورة "الميزان" الذي توزن به الأعمال والوحوش التي تتربص بالمذنب.. والنعيم الذي ينتظر البريء، كما حفلت البرديات بالاعتراف السلبي كما أطلق عليه. ولولا الإيمان المتأصل بعقيدة الخلود لما قامت الأهرامات والمعابد الضخمة ولما نشأ الضمير الذي أوجد الحضارة المصرية.. وهذا الاهتمام بالبعث والثواب والعقاب هو ما تفرّد به الإسلام بين الأديان السماوية بحيث نجد فيه صورة قريبة من الصورة القديمة بما فيها من ميزان لا يفلت مثقال ذرة، ونعيم للمحسنين وجحيم للغاوين.

فالإسلام هو الوريث الشرعي للديانة المصرية القديمة، وهو الفصل الأخير في مسيرة الإنسان المصري للتعرف على الحقيقة وراء أقنعة إيزيس وصور الآلهة المجسمة حتى انتهى به القرار إلى الإسلام فاستقر به النوى وعرف نفسه وضميره فيه..

وقد يسأل سائل ولماذا خص الشرق العربي - وليس الغرب الأوربي - بأن يكون الدين عماده وطابعه؟ قد يكون الرد عراقية الشرق، وأن الشرق وليس الغرب كانا مهداً للحضارة فكان لا بد أن تنتهي له دعائم الحضارة المذهبية ونظامها الاجتماعي وهذا الدعائم والنظام هو الدين. ولا ينفى هذا أن يكون للعامل الجغرافي والبيئة الزراعية آثارها لأن الله يهيئ الأسباب ليحقق النتائج ويضع "سنة" ثابتة لا تبدل لها تجعل النتائج تقوم على المقدمات...

وقد تصور البعض إن يهوى الدين من عرشه في العصر الحديث مع غلبة الوضع الصناعي وانتشار التعليم والثقافة وتقدم وسائل التنظيم والإدارة. وهذا وهم لأن الدين أصبح يبلور وجدان الأمة بالفعل. وهذه التغييرات على أهميتها وتقلها لا تززع أربعين قرناً من التكوين النفسي للإنسان العربي فضلاً عن أن حاجه المجتمع الحديث إليه لا تقل أهمية عن حاجه المجتمع القديم إليه. فقد كان الدين هو فلسفة الوجود والحياة لشعوب العالم القديم وسيظل كذلك في العصر الحديث بعد أن عجز التقدم المادي عن إشباع جوعه الروحي، ولم تستطع الفلسفة "الفنية" أن تنزل من أبراجها، وما نزل منها ابتذل وأفلس...

على كل حال فالقضية الأساسية التي نحن بصددنا هي أن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية، وقد اعترف بذلك كثير من الكتاب المنصفين، وهاهو ذا الدكتور قسطنطين زريق، الذي لا يمكن أن يتهم بالتحيز للإسلام - يقول في كتابه "الوعي القومي".

**"وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية، فلنستطيع أن نفهم تراثنا العربي القديم، سواء في الفلسفة أو العلم أو الفن إلا بعد درس عميق لنصوص الدين الإسلامي واحكامه وتفهم صحيح لروحه ونظامه. وهذا التراث العربي قسم من ثقافتنا الحاضرة، بل هو أساسها الذي تقوم عليه، وباطل ما ينادى به البعض من أن نرمى بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة فالتراث العربي جزء منا، شئنا أم أبينا، وهو فوق ذلك ميزتنا التي نفرّد بها بين الأمم، وقد أوتى من الخصب والقوة والجمال ما يدفعنا إلى الحرص عليه ومفاجرة الناس كلهم به ولهذا وجب على كل عربي من أي طائفة أو نحلة أن يهتم بثقافته الماضية وبيعثها الجديد. وهذا الاهتمام هو في طبيعة الواجبات التي تفرضها عليه**

## قوميته. إن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ويقدم ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الإسلام عليه<sup>(١٢)</sup>"

وقد لمس الدكتور قسطنطين زريق لمسة خفيفة بعض صور الشمول في الإسلام التي جعلته أهم مقوم من مقومات الشخصية العربية وسنحاول في الفقرات التالية أن نفصل في سطور بعض ما أجمله في كلمات...

فمن الواقع المقرر أن الإسلام شريعة كما هو عقيدة. وان الشريعة الإسلامية حكمت المجتمعات العربية طوال الألف سنة الأخيرة، وكانت الشريعة الإسلامية حماية لهذه المجتمعات من التغلغل الاقتصادي الرأسمالي الذي يقوم على الربا أو التغلغل الاجتماعي المفسد ببيع الخمر وفتح دور المراهنة والقمار والإفساد، كما كان واقياً لها. من مهانة التقاضي أمام قاضي أجنبي. ومن هنا كان من الأهداف الأولى للاستعمار القضاء على الشريعة الإسلامية، وإحلال القانون الوضعي، الذي سمح بطوفان التدخل..

والشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة التي يمكن أن يكون لها دور في الوحدة العربية. وقد صور ذلك العلامة الدكتور السنهوري "و. والقانون النهائي الدائم لكل من مصر والعراق، بل ولجميع البلاد العربية إنما هو القانون المدني الذي نشته من الشريعة الإسلامية. بعد أن يتم تطويرها. وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحدت. فيأتي القانون ليدعم وحدتها، وقد تكون في طريقها إلى التوحيد فيأتي القانون عاملاً من عوامل توحيدها، ويبقى على كل حال رمزاً لهذه الوحدة<sup>(١٣)</sup>."

والإسلام كذلك قيم اجتماعية طبعت المجتمعات العربية واثرت عليها فاستأصلت منها عادات الإدمان والقمار التي كانت سائدة فيها، وأوجبت النظافة والاعتدال أسلوباً وغاية وقرب بين الأغنياء والفقراء بدعوته إلى المساواة والبذل والتعاطف وإفشاء السلام واطعام الطعام وكذلك بنظامي الزكاة والأوقاف اللذين كانا بمثابة "مظلة التأمينات" وقضى الإسلام على نظم الامتيازات والأرستقراطيات والألقاب المتوارثة والإقطاعية الذي ساد العالم القديم وأوربا طوال القرون الوسطى. ومع أن نظام الحجاب الذي أسس فهمه قد أضر المرأة وجنى عليها وآخر البيت المصري فترة الانحلال، فإن فكرة الإسلام عن الجنس حالت دون فشو تلك المفاسد والموبقات التي تحفل بها المجتمعات الأخرى.

وكانت الوقائع والمعارك الإسلامية هي الأصل في الأدب الشعبي ابتداء من "فتوح الشام" حتى بيبرس وما بين ذلك من سيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة وغير ذلك من الروايات التي كانت أشبه بالروايات البوليسية وذاعت وانتشرت بين العامة والخاصة من اقل فلاح حتى آخر المماليك محمد الألفي الذي أوصى عندما أحس بالموت بأن يدفن في مقابر الشهداء بالبهنسا.. ولا تزال بقايا التقليد الإسلامي في مقطع من الأدب الشعبي أو الغناء كأن تبدأ "الحدوته" بالفاتحة المعروفة "كان يا ماكان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام".

١٢. الوعي القومي ص ١٢٨-١٢٩.

١٣. راجع العالم العربي مقالات وبحوث - الكتاب الثاني - بحث القانون المدني العربي ص ٢٨-٢٩ نشر الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية ١٩٥٣.

ومن المعروف أن ترتيل القرآن كان هو الأصل في التلحين الغنائي، فقد وضع علم القراءات أصولاً ومبادئ عديدة من وقف أو مد أو غن أو تطويل أو تقصير الخ.. وظهر بجانب الترتيل القرآني وعلى هامشه الإنشاد الديني والمدائح النبوية. وعن هذا الإنشاد ظهرت أولى صور التلحين وتتلذت أم كلثوم على المقرئ/الملحن الشيخ أبو العلا واعتبر محمد عبد الوهاب نفسه حسيباً على الشيخ الشعراي الذي شب في حماه، وألف أن يؤذن على منذنته، ولا يبدأ لحناً جديداً.. إلا بعد أن يتبرك به ويقراً الفاتحة عنده.

وبفضل القرآن والحديث تفتحت آفاق المعرفة أمام عامة الشعب وأفقر فقرائه وعميانه. وفتح الأزهر منذ ألف عام أبوابه للفلاحين دون امتحان، ودون كشف طبي، ودون مصروفات.. بل كان يقدم ما نسميه الآن "منحاً" وما كان يطلق عليه جراية واستطاع أبناء الفلاحين أن يصبحوا شيوخاً كباراً لهم مهابة ومنزلة مرموقة استمدوها من كتاب الله وحديث رسوله وجعلهم ذلك الزعماء الحقيقيين للشعب، وبذلك كبحوا جماح السلاطين والمماليك، وأنزلوا الحكام على نص الشرع وأبطلوا الكثير من مظالمهم.

والإسلام للشرق العربي هو التاريخ الحي، وقد يصور ذلك أن يحتفل بالقاهرة- مركز أعظم الحضارات القديمة- باعتبارها القاهرة المعزية، وأن يكون شعارها مآذن الأزهر وليس الأهرام، رغم أن موقع القاهرة المعزية نفسه كان مقر العاصمة المصرية القديمة، وكان يمكن الاحتفال بمرور خمسة آلاف سنة، ورغم أن التاريخ المصري فرض نفسه على مصر الحديثة بآثاره شمالاً وجنوباً، فتمثال رمسيس ينتصب في قلب القاهرة، والأهرام تطرز حواشيتها، وأبو الهول يقوم على حراستها، وأن أسلوبها في تزجيج الحواجب، وتصنيف الشعر، "والجيب" الضيق يكاد يكون موضة الوقت.. رغم كل هذا، فالحقيقة الواقعة هي أن كل ما كان قبل الإسلام من تاريخ أو أحداث أو قيم أصبح في طيات اللاشعور التاريخي. ويجب أن نعرف أن مصر قد تعرضت لألف عام من التحلل، بدأت بهزيمة أسماتيك الثالث أمام قمبيز سنة ٥٢٥ قبل الميلاد التي يمكن أن يقال إنها وضعت نهاية مصر القديمة بكل أمجادها وتقاليدها، وأخذت أطراف الماضي تندثر وتختفي مع كل عام يمضي. وكان دخول الإسلام هو اليقظة الأولى لمصر بعد سباتها "الأفي" منذ ٥٢٥ ق.م ومن هنا جاز لمؤرخ محايد جداً أن يقول "كما لا يجدي الإدعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم، فهي غير باقية وانتهى الأمر"<sup>(١٤)</sup> أما عن الحقبة المسيحية التي كانت تمثل قطعة حمراء، في تلك الحقبة السوداء، والتي لم تعمر لأكثر من ثلاثة قرون قبل أن يفجأها الإسلام، فإن هذا المؤرخ يقول إنها "تعيش في شبه ظلام تاريخي"<sup>(١٥)</sup>.

وحقق الإسلام الوحدة بين دول المنطقة في الفترة الإسلامية كانت مصر و"الشام" أي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تمثل دولة واحدة وقد تضم إليها "الحجاز" والسودان، كما جمعت بينها وبين العراق أو اصر الخلافة العباسية..

وطوال الفترة الإسلامية كان المشايخ هم الذين يمثلون القيادات الشعبية، وهم الذين يقودون المقاومة الشعبية عند الخطر. وعندما هاجم السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ اقتيد الأمراء الجراكسه إلى الشيخ أبو السعود الجارحي الذي كان يتمتع بمنزلة روحية كبيرة فوبخهم وجعلهم يقسمون على المصحف بأن يتوبوا عن المظالم ويلتفوا حول "طومان باي" ويخلصوا له..

١٤. سندباد مصري للأستاذ حسين فوزي ص ٣٤٤.

١٥. المرجع السابق ص ١١٧.

وعندما تعرضت الدول العربية للاستعمار الأوربي كان الذي تحداه وتصدى لدفعه هم الشيوخ، ففي مصر برز السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجمع الشعب تحت "البيرق النبوي" عندما انهزم المماليك أمام نابليون. ثم تزعم الثورة على الفرنسيين عندما دخلوا القاهرة وعلى محمد علي عندما بدأ يتجبر. وعندما أراد نابليون أن يعلق على صدر الشيخ السادات شارة الجمهورية الفرنسية قذف بها هذا إلى الأرض في الوقت الذي كان ملوك أوربا كلها يخفضون الجباه أمام نابليون. وفي الجزائر ظهر الأمير عبد القادر، وفي المغرب ظهر الأمير عبد الكريم الخطابي، وفي ليبيا قاد سيدي أحمد الشريف السنوسي والسيد عمر المختار الجهاد ضد الإيطاليين، وفي السودان ظهر "المهدي"، وأراد أن يأسر غردون ليفدى به عرابي. وكان الذي أيقظ العالم العربي وافد مسلم من أقصى آسيا: جمال الدين الأفغاني الذي وضع في هذه البلاد بذرة الصحافة، وبذرة البرلمان، وبذرة الحزب الوطني، وتقليد العمل الثوري لمقاومة الاستعمار وبالذات بريطانيا التي شن عليها - حتى أنفاسه الأخيرة - حرباً لا هوادة فيها، ويكاد هو أن يكون الإسهام الوحيد للشرق في عالم الثوريين العالميين العظام. دع عنك المئات من الأبطال المغاوير المجاهيل في أواسط أفريقيا من مؤسسي وتلامذة الطرق الصوفية الإسلامية كالسنوسية والتيجانية الذين نشروا العلم والمعرفة في أعماق القارة وكونوا إمبراطوريات وممالك ودولا زاهرة لا يكاد يعرف العربي الحديث عنها شيئاً، ثم قاوموا الاستعمار.. واستشهدوا في هذا السبيل.

والكثير من الناس يعتبرون السلطان عبد الحميد آخر سلاطين آل عثمان ممثلاً لنقائص الحكم التركي، ولكن إسلامه جعله يرفض الخضوع لإغراء باقعة الصهيونيين "هرتزل" لمنح اليهود أي امتياز في فلسطين. رغم أن هر تزل عرض عليه أموال اليهود في الوقت الذي كانت تركيا على شفا الإفلاس.

وحتى في عالم السياسة الحزبية.. نجد أن أكثر الزعماء تأثراً بالإسلام كانوا أكثرهم تضحية وأشدهم إخلاصاً وأبصرهم بالاتجاه السليم. فقد رأى مصطفى كامل أن العدو الحقيقي هو بريطانيا وأن الطريق الحقيقي هو الكفاح وليس المفاوضات.. وأن الدبلوماسية الدولية في هذه الفترة بالذات - يمكن أن تجدي. ودعا إلى تكوين الجامعة المصرية سنة ١٩٠٤ قبل أن يوجه "الغمرأوى" نداءه المشهور، وأسهم في تكوين سكة حديد الحجاز. ولما مات لم يجد شوقي في رثائه تشريفاً أكبر من وصفه بأنه "خادم الإسلام". وتلاه محمد فريد فكان مثالا ساطعاً للوطنية والإسلامية.. فأين هؤلاء من لطفي السيد مثلاً وهو انبه السياسيين الحزبيين، بانزلاقاته كرئيس لحزب الأمة (حزب الإقطاعيين) وبما دفعه إليه إيمانه الضيق بدعوة مصر للمصريين من الدعوة لأن تكف مصر عن مساعدة طرابلس عندما هاجمتها إيطاليا سنة ١٩١١ هجوماً غادراً وحشياً وحوصر المجاهدون وسدت في وجههم الطرق باستثناء مصر التي عمل رجال الحزب الوطني بإخلاص لتزويد المجاهدين بالمال والعتاد والمؤن.

وقل مثل ذلك بالنسبة لمحمد حسين هيكل الذي تأثر بفكرة "الفرعونية" قبل أن ينقذه الفكر الإسلامي، وإسماعيل صدقي الذي ركز كل جهده في تشجيع الرأسمالية الغربية ورفض شراء عدد كبير من الدبابات عرضها الجيش البريطاني في نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ولو كانت لدى الجيش المصري لما وقف سنة ١٩٤٨ عند أسدود. دع عنك الصغار الذين هيمنوا على البلاد كالنقراشي وعبد الهادي اللذين وأدا العمل الفدائي ضد إسرائيل، وكانا يأخذان الفدائيين والمتطوعين من ساحة القتال إلى معسكر الاعتقال، ووجها لكمة لعزة الشعب وكرامته عندما حلا أكبر هيئة إسلامية كانت - على أخطائها الصغيرة - أمل الشرق

والعرب وأخذتها العزة بالأثم فمضيا في طريق العسف وفتحا صفحة التعذيب المقيتة.. ثم سمحا بقتل زعيم الهيئة المرجى وتسترا على قتله.. وقدا بهذا كله لإسرائيل والاستعمار خدمات لم يكن يحلم بها.

وعندما استطاعت فرنسا بفضل مائة عام من الاحتلال أن تحطم المقومات القومية للجزائر، وأن توجد في ظل هذا الاحتلال الطويل جيلا يعد - بتعبير كاتب جزائري - "أسير اللغة الفرنسية" التي لا يتكلم غيرها.. وعرضت على الجزائر أن تكون قطعة من فرنسا وأن يتمتع الجزائريون بحقوق وواجبات المواطن الفرنسي، ولكن جمعية العلماء التي ظلت وحدها القلعة التي لا تستطيع فرنسا أو اللغة الفرنسية دخولها- أفتت بأن ذلك يعنى التخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية في الزواج، والطلاق والميراث الخ.. وأن هذا يعنى الارتداد عن الدين الإسلامي نفسه وبالتالي يحرم المتجنس من الصلاة عليه أو الدفن في مدافن المسلمين، وآثر الجزائريون إسلامهم- وكاد هذا أن يكون السبب الوحيد الذي حال دون أن تذوب الجزائر في المجتمع الفرنسي فلا عجب أن ترفع الصيحات عندما استقلت الجزائر..

### يا محمد مبروك عليك

### الجزائر رجعت إليك..

وقد أظهرت مأساة فلسطين كيف أن الوعي الإسلامي، قبل أي وعي آخر، كان هو الذي تنبه إلى خطورة المشكلة. ففي الوقت الذي كان دهاقنة السياسة الحزبية المصريون يضيّقون بكل محاولة لإشراك مصر في النزاع الفلسطيني/الإسرائيلي، ويكاد بعضهم يجاهر بتأييد الإسرائيليين، وكان موقف الاتحاد السوفيتي والأحزاب الضالعة معه لا يقل تأييداً للصهيونية عن أمريكا. كانت الهيئات الإسلامية على ضحالة وعيها السياسي بصفة عامة أول من تنبّهت إلى خطورة الوضع، لأنها رأت بإيمانها ما لم يره السياسيون بذكائهم. فأخذت تعمل لمقاومة التغلغل الإسرائيلي، وتجمع التبرعات لمساعدة عرب فلسطين في ثورتهم الكبرى سنة ١٩٣٦.

وعندما بدأت الحرب سنة ١٩٤٨ قادت جماعة الإخوان المسلمين الحركة التطوعية. وأصبح أعضاؤها من الشبان المثقف الذي ترك الجامعة، أو العمال الذين ضحوا بأعمالهم "ومدة خدمتهم" أو الفلاحين الذين باع كل واحد منهم جاموسته ليشتري بندقية، رعب اليهود والشبح الرهيب.. وقدمت الجماعة أكرم وأنبل الشهداء.. ولو أعينت أقل إعانة في هذا العمل البطولي لخلصتنا من إسرائيل! ولكن هؤلاء الأبطال كانوا- كما ذكرنا- يؤخذون من ساحة القتال إلى معسكر الاعتقال لأن السياسة الحزبية الغبية الضيقة المحرومة من الوعي الإسلامي كانت تتحكم في مصر...

وعندما حدث العدوان الثلاثي، وفوجئت مصر في أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ بثلاث دول تهاجمها لم يجد الشاعر ما يثير النخوة والكرامة وروح الاستقلال إلا (الله أكبر) فأصبح (الله أكبر) نشيد المعركة. ولم يجد عبد الناصر إلا الأزهر مكاناً يستطيع أن يسمع الشعب منه، فهرع إليه كما فعل عمر مكرم والشيوخ قبل مائتي عام.. ليعلن من على منبره كلمة الحرب.

وأخر ما يصور المنزلة الرفيعة للإسلام في قلوب الناس رغم المحاولات لصددهم عنه ما قرره المؤتمر الوطني العام للاتحاد الاشتراكي العربي بليبيا "يؤكد المؤتمر أن الإسلام هو المنبع الوحيد للقيم

والحضارات الإنسانية وهو رسالة سماوية ذات زاد فكري لا ينضب إلى البشرية كافة يطرح بعمق ووضوح نظرية شاملة فشلت كافة المذاهب في طرحها. وهو رسالة تحل تناقضات الشعوب وتذيب فوارقها".

وفي الملئقي الإسلامي الذي عقد في الجزائر من ٢٤ يوليو حتى ١٠ أغسطس ١٩٧٢ أعلن الرئيس هواري بومدين في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه باسمه مولود قاسم وزير التعليم الأهلي والشئون الدينية "إن الجزائر قد قررت بعد استرجاع سيادتها واستقلالها أن تستكملها باستعادة جميع مقومات شخصيتها وعناصر ذاتيتها. ولقد كان الإسلام دوماً روح مقاومتها ومصارعتها لمحاولات الابتلاع".

ولم تجد ليبيا أفضل من اسم عقبة بن نافع لتطلقه على قاعدة "هوليس" كما لم تجد الجزائر أفضل من اسم "المجاهد" لتطلقه على صحيفتها الرسمية، وجعلت المقاومة الفلسطينية من كلمة "فتح" علماً عليها.

**محصلة هذا القول أن الإسلام ليس فحسب ديناً يجسد وجدان الشعب العربي وبيبلور عاطفته الدينية ويحدد موقفه وفلسفته إزاء الوجود، ولكنه أيضاً قاتونه وتشريعته وتاريخه وأدبه وماضيه الحي وكفاحه السياسي على مدار ألف وثلاثمائة عام متصلة.**

والعامل الوحيد الذي يمكن أن يسامى الدين في قوته كعامل في تكوين الشخصية هو اللغة. فاللغة أعظم رباط يربط مجموعة من الناس ويؤلف بينهم كما أنه أقوى عامل يؤثر في تفكيرهم.. ولكن اللغة العربية ليست إلا بنت الإسلام قرأنا وحديثاً. فهو - كما ذكرنا في مكان آخر - "الذي حلاها من عطل وشهرها من نكر" فالعربية قبل الإسلام هي عربية المعلقات وسجع الكهان، ومع أن الشعر الجاهلي صادق في تصويره - إلا أنه لا يتسع إلا لمجتمع قبلي محدود.

ثم جاء الإسلام فكان ميلاداً جديداً للعربية وجاء هذا الميلاد على يدي القرآن والحديث.. فأوجد القرآن نسفاً جديداً إلى جانب الشعر والنثر، وعالج الألفاظ والمعاني معالجة خلق وإبداع لا معالجة انسياق وإتباع، فوضع القرآن في اللغة هو وضعه في الديانة: حاكم لا محكوم، فما يقوله يصبح القاعدة والمعيار حتى وإن لم يكن للعرب عهد به، وقد قال اللغويون إن العرب "أمانوا، ماضي يدع ويذر لكن القرآن قال ما ودعك ربك بالتخفيف وجاء في الحديث "لينتهي قوم عن ودعهن الجمعات" أي تركهم.

ولو تعقبنا كتاباتنا العادية لوجدنا بصمات القرآن واضحة لا في الأساليب فحسب. ولكن أيضاً في عدد كبير من التعبيرات التي سكتها القرآن.. وأصبحت عملة متداولة في الكتابات اليومية. مثل...

الصراط المستقيم. قاب قوسين. ريب المنون. أوجس خيفة. أقرب من حبل الوريد. سنة الله. هباء منثوراً. العروة الوثقى. ضاق بهم ذرعاً. بلغ أشده. أضغاث أحلام. قاعاً صفصفاً. أساطير الأولين. بشق الأنفس. كبرت كلمة. شغفها حباً. خاوية على عروشها. متقال ذرة. سواء السبيل. لا يغنى ولا ييسمن من جوع. بضاعة مزجاة. ذات الصدور. قدم صدق، عرضاً قريباً. كلمح البصر، شفا جرف هار، البأساء والضراء. أسرها في نفسه. أجل مسمي، المثل الأعلى. خائنة الأعين. التي هي أحسن. تقطعت بهم الأسباب. أسوة حسنة. تضع الحرب أوزارها. سكرة المنون. طال عليهم الأمد. وبال أمرها. جزاءً ولا شكوراً. لؤلؤاً منثوراً، بكرة وأصيلاً. سعيكم مشكوراً. قرار مكين. طرف خفي. توارت بالحجاب. شهاب ثاقب. قرة عين. أرذل العمر. نسياً منسياً. يتربص بكم الدوائر. سقط في أيديهم. الحرث والنسل. النقي الجمعان. نضرة النعيم. يبدئ ويعيد.. الخ...

ومن التعبيرات التي سارت مسرى الأمثال والحكم "وَلَا تَرَرُ وَازِرَّةٌ وَزَرَ أُخْرَى. الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ. وَأَتُوا النُّبُوتَ مِنْ أُبُوَابِهَا. هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ. لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. سَلَفُكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ. فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ. يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا. الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ. ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ. كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ. حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ .. الخ...

ثم جاء الحديث النبوي فأضاف ثروة جديدة إلى ما أضافه القرآن وسمع العرب من محمد ما لم يسمعه من غيره من قبل، فلم يسمع أبو هريرة بكلمة السكين قبل أن يسمعها من النبي وإنما كانوا يسمونها "المدية" ولقد يبدو أن تعبير "من وراء البحار" تعبير محدث لا يجده الإنسان إلا كترجمة لتعبير بريطاني. ولكن القارئ يجده في الحديث قبل أن يكون لبريطانيا شئ وراء البحار.

وهكذا كان القرآن فتحاً بل خلقاً جديداً في اللغة العربية. أسلوباً. ومعالجة. وإثراء... وبلغت كتب التفسير والحديث وقواميسها وشرحهما والأحكام المستقاة منهما الألوفاً وعشرات الألوفاً وقد يبلغ الكتاب الواحد ثلاثين جزءاً ضخماً.

وفي سبيل حماية القرآن من اللحن وضع النحو، ولتيسير قراءته وضعت النقط وعلامات الشكل، ولفهم أسلوبه درست اللغة دراسة فنية تفصيلية. ومن العلماء من جعل الغاية الوحيدة من دراسة علوم البيان هي معرفة سر الأعجاز. ويبدو هذا واضحاً من كلام عبد القاهر في دلائل الأعجاز. والسكاكي في المفتاح وقال ابن خلدون "واعلم أن ثمرة هذا الفن - البيان - إنما هو فهم إعجاز القرآن".

ولما نزل القرآن بالعربية أصبحت لغة عبادة واكتسبت صفة تكاد تكون مقدسة. وانتشرت في كل العالم الإسلامي حتى أقصى الصين والهند وأسبانيا ومن لم يعرف العربية معرفة تحادث وتخطب أو قراءة وكتابة عرفها بالقدر اللازم لعبادته. وعكف المثات. بل الألوفاً من جهابذة علماء خراسان وما وراء النهر والهند وتلك الجهات التي نسميها إيران والأفغان والاتحاد السوفيتي والهند على دراسة اللغة العربية وإحكامها حتى وإن لم تسعفهم ألسنتهم أو حالت العجمة عن أن يحكموا النطق بها. فوجد من علماء اللغة من لا يستطيع أن يقول "حمار" وإنما ينطقها (همار). وكتب الرازي. وابن سينا. والبيروني. والقارابي وغيرهم الأمهات في العلوم والمعارف بالعربية، ووجد في الشعر والحديث من يحمل اسم ابن الرومي وابن جريج بل إن معظم أئمة الحديث والتفسير يحملون أسماء تتم عن أصولهم الأجنبية مثل (البخاري) و (الترمذي) و (الطبري) و (النسائي) و (النيسابوري) و (السجستاني) و (القزويني) الخ... وبهذه الطريقة كسبت اللغة العربية خدمة عباقرة الأجناس المختلفة من دول ما كانت تأبه للغة العربية أو حتى تلم بها لو أنها ظلت لغة المعلقات أو امرئ القيس

بل إن آخر الدعاة إلى القومية العربية على أساس اللغة وهو الأستاذ ساطع الحصري لم يكن يحسن النطق باللغة العربية، وكان إسلامه - حتى وإن لم يعترف هو - في أصل الانتماء إلى هذه البلاد...

وهناك خدمة أخرى قدمها القرآن للغة العربية، والقومية العربية. فمع مرور القرون وتوالي الأجيال واختلاف العوامل البيئية والمحلية في مختلف دول العالم العربي ظهرت لهجات وعاميات تختلف اختلافاً بيناً بحيث لا تكاد عامية العراق تفهم في السودان، ولا عامية السودان تفهم في مصر، ولا عامية مصر تفهم في



سوريا، وهلم جراً. وكان من الممكن أن يقضى ذلك على وحدة اللغة بحيث لا تفهم الشعوب العربية بعضها بعضاً لولا "بركة" القرآن ويده البيضاء على اللغة العربية. ذلك أنه أوجد العربية القياسية الموحدة التي تفرض نفسها فرضاً على كافة اللهجات العربية، بحيث أصبح كل عربي يلم بقبس منها بحكم حفظه للفاتحة و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبقية قصار السور.. ويأخذ فكرة كافية عنها بحكم سماعه للقرآن الذي يتلى ليل نهار في البيوت والمساجد.. وبهذا أصبح لكل عربي إلى جانب اللهجة العامية الخاصة بإقليمه، عربية فصحي يشترك معه فيها كل أبناء الأقاليم والدول العربية، بل والإسلامية لا لشيء إلا لأنها لغة القرآن...

وقد هوجم وجود لغة فصحي إلى جانب اللهجة العامية، وبدأت هذا الهجوم القوى الاستعمارية التي أرادت لأن تضرب عصفورين بحجر واحد. فتفتتت الوحدة العربية بأن تقضى على اللغة الفصحى التي تجمعها، وتوهن المقوم الإسلامي عندما لا يكاد الشعب يفهم لغة قرأه. فحاولت ذلك فرنسا في الجزائر والمغرب، وحاولته بريطانيا في مصر.. وأسهم في هذه الحملة كتاب سذج وآخرون مغرضون. وفشل كل هؤلاء رغم ما كان لديهم من قوة وسلطان لأن إعزاز الشعوب العربية لإسلامها وقرآنها.. كان أقوى منهم، وكوفئت الشعوب على ذلك بأن كسبت الإسلام.. والعربية.

والواقع أن وجود لغة فصحي، أرستقراطية، فنية إلى جانب اللغة العامية كان، وسيظل نعمة كبرى، وتقسيم مفروض بحكم التخصص. فلا يمكن للغة أن تكون في آن واحد لغة مطبخ وحديث يومي، ولغة أناقة وفن موسيقى ومشاعر عميقة. وكان من بركة الإسلام أن جعل اللغة الأرستقراطية دانية القطوف لكل فرد بلا استثناء. واللغة العربية في هذا أفضل من اللاتينية التي تعد أصل اللغات الأوروبية الحديثة ولا يلم بها حديثاً أو كتابة إلا الصفاة القليلة المثقفة لأنها ليست لغة دين، ولأن العلاقة المباشرة بها أنبتت منذ مئات السنين...

**خلاصة هذا كله أنه إذا كانت اللغة هي لدى أنصار القومية العربية المحدثين الأساس المكين، فإن كل فضل لها يجب أن يقيد لحساب الإسلام بالذات، فاللغة العربية ربيبة الإسلام وحسينته.. ولولاه لما كانت شيئاً ولمزقتها اللهجات إرباً إرباً...**

\*\*\*

لعلنا بما قدمناه آنفاً قد أثبتنا أن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية، بل هو طابعها وجابلها ودعامها. وزيادة في الإيضاح فسنثبت هذا الأمر نفسه بطريقة أخرى هي نفي كل البدائل الأخرى المحتملة...

فإذا لم يكن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية.. فما هو هذا المقوم؟؟

هل هو اللغة.. لقد أوضحنا بما لا يدع شكاً أن اللغة العربية الحديثة ولدت على يدي الإسلام وسارت ونمت في حماية القرآن، ولولا هذه الولادة الحديثة وهذه الحماية المستمرة لقصت عليها اللهجات المحلية، ولا نحت مستوى التفكير بانحطاط أدواته فضلاً عن تقطع الأواصر بين كل الدول العربية.

واللغة بعد أقل من الدين أثراً في طبع الشخصية..

وهناك مثالان بارزان على هذا.. ففي الجزائر قضت فرنسا على اللغة العربية، ولكنها لم تستطع أن تقضى على الإسلام، فأدى بقاء الإسلام إلى استعادة اللغة.



وفي لبنان لم تستطع الأقلية المارونية المسيحية (لأنها في الحقيقة أقلية) أن تهضم وضعها وسط العالم العربي المسلم فحنت إلى أقرب الدول المسيحية إليها- فرنسا- وآثرت اللغة الفرنسية، رغم أنها أشبه بجزيرة صغيرة وسط بحر عربي، ولكن الدين.. أدى إلى اللغة..

فاللغة أقل أثراً من الدين..

واللغة العربية بالذات وليدة الإسلام...

إذن هل يكون الجنس...

هذا لا يمكن، لأن الجنس وحده لا يمثل الصدارة. فالشخصية أعمق، وأعقد بكثير من مجرد الجنس، ومن أجل هذا قيل إن الفرق بين أفراد الجنس الواحد أكبر مما هو بين جنس وآخر، فالجنس أضال وأقل من أن يكون المقوم الذي تدور عليه الشخصية المتميزة للأمة. ولكل جنس بعد اعتزازه وإسهامه في تاريخ العالم. وليس في الجنس العربي ما يميزه بالذات ويجعله أفضل من بقية الشعوب. فإذا ذكرنا في حسناته المطبوعة الكرم والأنفة والحمية، فيمكن أن نذكر أيضاً في عيوبه الحدة والعاطفة الفردية وما حفلت به الجاهلية من سوءات كالوآد والشرك ونظم الزواج المعيبة. والميزة الوحيدة للعرب على بقية شعوب العالم هي أنهم حملة رسالة محمد ودعاة الإسلام فالفخر والمنة بعد الله للإسلام أولاً وآخراً.

فدعوى الجنس- باعتباره المقوم الأساسي للأمة- مرفوضة عملياً وأدبياً. ومن قبل حسم سيد العرب ﷺ هذه القضية عندما جعل المناطق في العربية اللغة، وليس الجنس فقال "العربية اللسان" وجعل مناط الأفضلية التقوى والعمل "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

ولا يمنع هذا بالطبع من أن سكان هذه المنطقة العربية هم من جنس واحد أكثر مما يظن البعض، فالمصريون عرب لأن موجات عديدة من الهجرة العربية وفدت على البلاد قبل الفتح الإسلامي بكثير. وبحق قال شوقي:

**السئم بني القوم الذين تمردوا على الضربات السبع في الأبد الخالي**  
**رددتم إلى فرعون جداً وربما رجعتم لعم في القبائل أو خال**

والعرب أيضاً- وأعنى عرب الجزيرة - مصريون.. لأن أهمهم هي هاجر المصرية..

إذن هل يكون التاريخ...

لقد أوضحنا أن التاريخ القديم- تاريخ ما قبل الإسلام- أصبح ذكرى تاريخية فحسب فصلت بينها وبين التاريخ الحي للبلاد ألف سنة من التأخر والانحلال اندثرت خلالها كل مآثر التاريخ القديم، وأصبحت البلاد فيها نهياً للرومان والفرس حتى جاء الإسلام فكان البداية الحقيقية للتاريخ الحي للبلاد، أما ما قبله فقد أوى إلى ركن سحيق من أركان "لا شعور" الأمة.. وهذا هو السبب في أننا لا نسمع دعوة فرعونية أو دعوة آشورية أو دعوة فينيقية، حتى ولو من باب النزوات والتقاليع..

وقد وضعنا الأمر في نصابه عندما قلنا أن التاريخ القديم كون اللا شعور الموزع في حين أن الإسلام كون الشعور المجمع والتاريخ الحي الواحد لسكان المنطقة جميعاً.

أكثر من هذا...

هل نجحت المحاولات المتعددة لمفكرى العالم العربي في العصر الحديث على اختلاف ثقافتهم وانتماءاتهم في أن توجد في المجتمع العربي نظرية غير إسلامية تملأ وجود المجتمع العربي أو تقنع المواطن العربي أو تتجاوز مع تكوينه النفسي؟ لم تخدم نظرية في العصر الحديث كما خدمت الشيوعية، ولم ترزق تأييد دول وفلاسفة كما رزقت، ومع هذا فقد فشلت الشيوعية عندما حاولت أن تنتسل إلى هذه البلاد رغم تسليحها بالمال والمغريات وادعاء العلمية في أن تكسب جمهوراً عريضاً من صميم الشعب حتى في دوائر العمال والنقابات، واقتصر الإيمان بها على حفنة من أنصاف المثقفين والمتمصرين واليهود وأولاد الذوات!

ومع أن حزب البعث استطاع أن يلي الحكم فترات عديدة، ولم تعوزه كل الإمكانيات التي تتاح لحزب حاكم، فإن كل محاولاته لإيجاد أيولوجية عربية كانت دليلاً لا يدحض على الإفلاس.. قدر ما كانت دليلاً على أن نظرية تتجاهل الإسلام تنفي نفسها من قلوب الناس وتقتصر على جمهور المنفعين. وقد فشل حزب البعث في التصدي للشيوعيين وتحويلهم إلى بعثيين، بينما تمكن هؤلاء بوسائلهم المعروفة من التغلغل في حزب البعث السوري والعراقي، وليس من ريب في أنهم يرسمون الخطط لإعادة تلك الحقبة الكريهة التي ما كادوا ينتسمون فيها نسيم السلطة، حتى بدعوا عهد "السحل" والقتل والإبادة..

كما لم تتجح كل المحاولات التي بذلتها على مدار عشرين عاماً أو أكثر بعض الدول العربية النامية لإيجاد "أيولوجية" عربية متكاملة رغم الاجتماعات والمؤتمرات وتسخير الموارد والإمكانيات والعقول والطبول!!

ومن قبل سقطت كل الدعوات الأخرى التي ظهرت في فترات مختلفة مثل "الحزب القومي" الذي ألفه أنطون سعادة أو دعوة "الفرعونية" أو الإفريقية.. الخ.. بالسرعة التي ظهرت بها.

\*\*\*

وهناك ظاهرة ملموسة ومؤسفة تدخل في هذا الباب، باب الإثبات بالنفي.

فقد تعرض المقوم الإسلامي في الفترات الأخيرة لحملة شعواء قامت بها قوى عديدة، وتسليحت فيها بكافة الأسلحة بما فيها وسائل الإعلام، والسينما، والصحافة الخ..

وكانت نتيجة ذلك أن وهن فعلاً المقوم الإسلامي، ولكن ذلك انسحب على "الشخصية" التي ماعت وبهتت وطغت عليها السلبية وعدم الاكتراث والانتهازية والسطحية.

حدث فراغ وتخلخل أيولوجي انعكس على تصرفات الشباب وأثمر السلوك السقيم الذي نشاهده سواء كان جنوناً بكرة قدم أو انسياقاً وراء المواضات الشاذة والرقصات المجنونة والموسيقي العاوية..

ولم تتجح كل الجهود التي بذلت لملأ هذا الفراغ رغم ما يبذل من محاولات مستبئسة، على العكس لقد استغلت هذه الجهود لمصلحة الاتجاه التحللي كما تدل على ذلك مأساة الفنون المصرية فقد أضاعت السينما على الدولة قرابة ثمانية ملايين من الجنيهات في سبيل إخراج عدد من أفلام "الغوازي" أو "الجنس" أو الجريمة تحفل بمناظر السكر والعريضة والجريمة والرقص، وملاً التلفزيون ساعات إرساله بإذاعة أفلام هاوية ومسلسلات لا تفضل هذه الأفلام، وبعثت مرة أخرى أغاني "الفلكلور" المزعوم، وأصبحت مفخرة كل

محافظة أن تكون فرقة للفنون الشعبية! واستغلت قصور الثقافة في "الفلكلور" و"التمثيل" و"المزيكة" كما ينطقونها! فعامية وجهالة كبار الفنانين بلغتهم جعلتهم يندحرون بفنهم الجميل من موسيقي إلى "مزيكة"! وأثبتت كل هذه المأساة أن الإمكانات المادية مهما توفرت، ومهما كانت جسيمة، فإنها لا تعوض الإفلاس الأيدلوجي...

ويجب في هذه النقطة - نقطة الشخصية - أن نفرق بين ناحيتين: الأولى تعمق الشخصية ورسوخها والثانية سلامة هذه الشخصية...

فالرجل الذي يفهم الإسلام فهماً شكلياً، فلا يعنى إلا بأن يطيل لحيته، ويعفي شاربه، ويرسل عذبتة، ويهتم بالظواهر دون الجواهر يجنى ولا شك على سلامة الاتجاه، ولكن هذا النقص لا ينفي أنه اكتسب شخصية معينة ثابتة واضحة لا لبس فيها ولا التواء، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الشخصية حسنة أو سيئة

وقل مثل ذلك في "الصعيدي" الذي يتخلق بأخلاق معينة، أو يتمسك بعبادات موروثة، قد تكون سقيمة أو عقيمة، ولكن إيمانه بها يهديه إلى المسلك المحدد وينقذه من الحيرة والبلبلية، فضلاً عن الضياع ويجعل له معياراً وشخصية.

في حين أن شاباً لا يتوفر له المقوم الإسلامي لا يلبث أن يقع فريسة للصراع المذهبي ما بين الشرق والغرب، بين الجديد والقديم دون هداية إلا ما يسمع من دعايات رخيصة لا تفيده في شئ بل تزيد في بلبلته وتمييع شخصيته ومعاييره في الحكم على الأشياء.

وقل مثل ذلك في المرأة المصرية المدنية التي تعد نتاجاً خالصاً للبورجوازية المصرية المتمثلة في "حواء" و "صباح الخير" والإذاعة والتليفزيون، والتي فقدت جذورها التقليدية وأصبحت حائرة معذبة مبلبلية خاطر ممزقة الأحاسيس، فقد خسرت تلك الأصالة التي كانت لجذورها الفلاحة الراسخة المطمئنة المستلهمة للإسلام، دون أن تكسب جرأة وانطلاق المرأة الأوروبية التي بنت شخصيتها على مكونات خاصة بها. إنها "أي المرأة المصرية" تلبس "الميني" والثوب القصير انسياقاً وراء المودة ولأنها لا تملك مناعة ضدها، ولكنها ما أن تجلس وينحسر فستانها فوق الركبة حتى يعروها الخجل ويثور فيها تقليد الحشمة المستكن فتأخذ في جذبته وشده، أو تضع حقيبة يدها على الركبتين، أو ما هو أعجب، تسبغ "ايشارب" كبير كأنه فوطة على ركبتها! وليس ما هو أكثر رمزية على وضع المرأة البورجوازية المتأرجح من مثل هذا المشهد..

ولست أنسى ما قرأته من مده عن تلك "الأخصائية" الاجتماعية التي ذهبت إلى الريف متبرجة متبهرجة، في ثوبها القصير إلى إحدى القرى لبحث حاله، وكان ذلك في رمضان فخرج عليها القرويون المحنقون بالفؤوس!

ولو رسخ المقوم الإسلامي في نفوس الشباب، لما وجدت هذه الصور من الضياع والتفاهة والحيرة. ولعمق الشخصية، وأكسبها فهماً للحياة بحيث تقبل أو ترفض.. تحب أو تكره على هدى وبصيرة وبمعيار واحد وثابت، ولوجد الجسر المطلوب، واللغة المشتركة بين كل طبقات المجتمع.

ولا يتصور أحد أن الأخذ بالإسلام يعنى بالضرورة هذه المناهج التي يضعها الكثير من الدعاة إلى الإسلام، فقد أصيب الإسلام على يدي أصدقائه، بمثل ما أصيب على يدي أعدائه، وجنت عليه الإفهام السقيمة

بقدر ما جنت عليه القلوب الشريرة.. وإيضاح هذا هو ما سنثیره بطريق غير مباشر في الباب الثاني، وما سنعالجه بتفصيل في القسم التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً.

وفي حالات أخرى لا يتعرض المقوم الإسلامي للهجوم ولا نشن عليه الحملات، ولكنه يُتجاهل أو يدغم في المقوم الديني بحيث تحل كلمة الدين محل كلمة الإسلام في الصحف أو أجهزة الإعلام حتى عندما يكون الحديث هو عن الإسلام.

إن هناك فرقاً بين أن نقول الدين، وأن نقول الإسلام هو الفرق ما بين التعميم والتخصيص. فاليهودية دين، والمسيحية دين، والبوذية دين. وعندما نقول دين، فيمكن أن ينسحب ذلك على كل دين من هذه الأديان في حين أننا لا نريد إلا الإسلام بالذات، وهذا نوع من التمييز والإيهام يفسد المعنى ويحول دون دقته. ولا يحق لأي اعتبار أن يجنى على الحقيقة أو ينتقص من المعاني أو يحولها عن وجهها وغايتها.

## الباب الثاني

### مكونات الإسلام

عندما جعلنا عنوان الباب الأول من هذا الكتاب "لماذا الإسلام" فإنما كان ذلك للرد أو لا وقيل كل شئ على بادرة العزوف عن الإسلام والضيق به والاتجاه العدائي نحوه وسوء الفهم الذي أحاط بالأسباب التي يظن معظم الناس أنها مبررات الإيمان من وراثه أو تقليد أو تعصب.

ولكن لا يقل عن ذلك أهمية الرد على السؤال "وما هو الإسلام؟" لأن مجموعة من الإلتباسات أحاطت بهذه النقطة أساءت إلى الإسلام وأظهرته على غير حقيقته حتى بدا غريباً وأصبحت عملية "استكشاف الإسلام" هامة بقدر ما هي شاقة، هامة لأنها المدار في كل العمل، وإليها يعود الضمير عندما نقول للإسلام، ولولاها لنسبت كل إشارة في هذا الكتاب عن تمجيد الإسلام إلى صور من الفهم الشائه السقيم للإسلام، وشاقة لأن طبقات عديدة من الغشاوات الكثيفة تراكمت على الإسلام، وتقبلتها معظم المجتمعات الإسلامية بحيث أصبحت وكأنها أجزاء لا تتجزأ من الإسلام. وأصبح العمل بها دأباً وتقليداً وعادة.

وقد أريد بهذا الفصل - مكونات الإسلام - القيام بهذه المهمة عن طريق توضيح المكونات والعناصر التي يتكون منها الإسلام، والتي رأينا أنها خمسة هي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة والتراث وشرح كل عنصر من هذه العناصر في ضوء فهمنا وما انتهى إليه اجتهادنا.

ولم يأت هذا التقسيم عبثاً، ولكن لأن لكل عنصر منها طبيعة خاصة، ومهمة خاصة، وحكماً خاصاً. فالعقيدة التي تتضمن الإيمان بالله ورسله، واليوم الآخر، تمثل الباب المؤدى للإسلام، وجوهر الإيمان به. أما العبادة فهي الوسيلة المتفق عليها لتنمية الإيمان بالعقيدة والحفاظ عليها وممارسة "الشعائر" التي يوجبها الدين تحقيقاً لذلك. أما الخلق فهو رد الفعل الاجتماعي للإيمان والعبادة، أو هو نوع من العبادة الاجتماعية يعبد الله فيها بالصدق والإخلاص والوفاء والعدل، كما يعبد بالصوم والصلاة. والعقيدة والعبادة والخلق لها صفة الإيمان الذي يقوم على الضمير، ولا يصح إلا بالنية، ومن ثم فإنها تكون في حماية الستار الذي استأثر بعلم القلوب وحقيقة النوايا ويفترض أن لا تعتمد على تشريع أو تقوم على سلطة. وإن كانت بعض العبادات تكتسب إلى جانب صفة الإيمان الشخصي صفة اجتماعية كصلاة الجماعة أو الحج أو الزكاة التي تدخل أيضاً في باب الشريعة. والشريعة هي الجانب التشريعي والتنظيمي للإسلام "الحدود - القصاص - الربا - الزكاة - الزواج - الميراث - الأحكام السياسية الخ" التي تتفق مع نظرة الإسلام إلى المجتمع وفهمه لما يجب أن تكون عليه أوضاعه. وهي جزء لا يتجزأ من الإسلام يفترض أن تأخذ حكوماته ومجتمعاته بها، وهي في هذا تختلف عن العقيدة والعبادة والخلق لأنها "أي الشريعة" تمس أساساً الآخرين والمصالح الدنيوية، ومن ثم فهي تخضع لسلطة المجتمع خاصة عندما تأخذ طابع العلانية. وإن كان من الضروري أن نورد هنا تحفظاً هاماً هو ضرورة تفهم المجتمع الحديث لها فهماً يعود إلى جوهر الإسلام وحده، وليس إلى التفريعات أو شروح الفقهاء المتأخرين، وهذا ما يؤدي بنا إلى المكون الخامس من مكونات الإسلام إلا وهو التراث. ونحن نعنى بالتراث كل ما جاء عن هذا كله خارجاً عن النص الصريح الواضح للقرآن أو الأثر المحدد الثابت للسنة. فإن الدين قد تم بوفاة النبي ﷺ ويجب أن تكون هناك تفرقة جذرية تقوم على أساس تاريخي. فعهد النبوة، قرآن

وسنة، نور على نور، وحي وإلهام ومنة من الله على البشرية. ونحن نقنّبس من هذا النور ونلتزم بالثابت منه. أما عهد الخلفاء الراشدين، فهو امتداد لرحمة النبوة وهديتها، وقبس من نورها، ومثل نادر للأمانة في الاجتهاد، ونحن نقنّدي به ونضعه نصب أعيننا، ولكن دون الإلزام الديني ودون إكسابه قداسة التنزيل وعصمة الحلال والحرام الشرعيين، فقد نشكر لعمر بن الخطاب اجتهادا وتأخذ به، وقد لا نقر الآن اجتهاداً آخر له. وما بعد الخلفاء الراشدين ملك عضوض وصراع على السلطة، باستثناء الفلتات مثل عمر بن عبد العزيز، ونور الدين الشهيد وصلاح الدين. وهذه الفترة رغم أنها فترة الاجتهاد والمذاهب والشروح. الخ.. إلا أننا لا نرى فيها كلها سوى اجتهادات تصيب وتخطأ.. وما قد يعد منها صواباً وقتها قد لا يعد صواباً الآن. ولا نريد لهذا العصر أن يكون صورة طبق الأصل لعهود مضت. أو نعيش عالة على أئمة المذاهب.. وظهر أئمة أعلام مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وابن حزم وابن تيمية الخ. لا يعنى عدم ظهور أئمة آخرين في هذا العصر يكون لهم من الذكاء ومن الورع ومن الإحكام ما كان للسابقين. بل إن الفقيه في هذا العصر يتأتى له من عدة العلم ووسيلة البحث والتمحيص والترجيح ما لم يتأتى للأئمة السابقين. فلو توفر له الورع لفاقهم وزاد عليهم. والأمر ليس أمر اجتهاد أو حرية فكرية فحسب. ولكنه كذلك تقوى وحذر من التهجم على الأحكام وإضفاء صفة الحلال والحرام على اجتهادات تخطأ وتصيب.

والتراث بعد لا يقتصر على الأحكام الشرعية ولكنه يضم كل الثقافات الإسلامية. وكل ما تركه العلماء والخلفاء والأدباء والشعراء من كتابات وتقاليده مما أثرى الإسلام ووسع آفاقه.

\*\*\*

وفكرة تقسيم الإسلام إلى عناصر أو مكونات ليست من إبداعنا، فهناك أحاديث نبوية عن شعب الإيمان، وبعضها يجعلها نيفاً وستين أو وسبعين شعبة من إمطة الأذى من الطريق حتى لا إله إلا الله، التي ترمز بالطبع إلى العقيدة. كما عالج السلف قضية الإيمان، وهل يزيد وينقص، وهل العمل جزء من الإيمان أم لا. وتفرد الخوارج بأن قالوا إن العمل لا ينفصل عن الإيمان، ومن ثم فإن أي تقصير في العمل يكفر صاحبه ويجعله يستحق أشد العقوبات. وقال لفيف من التابعين إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولكنه فاسق، وجعله المعتزلة منزلة بين المنزلتين وأضفى الجدل المعتزلي سحابة من الضباب والغيم على الموضوع، وأبعده عن الأذهان، بدلا من أن يقربه إليها. ولو أن المسلمين فقهوا وفهموا الآيات القرآنية والأحاديث الثابتة وفسروا بعضها ببعض لأخذوا الفكرة السليمة، وكان ذلك أفضل بمراحل من الأساليب الكلامية التي طعمت بعناصر يونانية معقدة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وبساطته، فضلا عن أن هذا الأسلوب عجز رغم كل الادعاءات المنطقية عن أن يلمس حكما خفية عديدة لفاطر السموات وجابل الطبيعة البشرية ومقلب القلوب.. لا تدرك بالمنطق أو الحساب أو الكلام (وهو التعبير الإسلامي لكلمة - ديالكتك - أي الجدل الذي قامت عليه الفلسفة اليونانية، واستغلته - فيما بعد - الماركسية)..

**من هذه الحكم واللطائف أن النفس الإنسانية ليست كتله صماء.. وليست قناة واحدة تجمع الإيمان والعمل معا كما تصور الخوارج، بل ليست كالأواني المستطرقة التي ما أن تسكب فيها سائلا حتى يتطرق إليها جميعاً ويلزم فيها مستوى واحداً. إن النفس الإنسانية معقدة كل التعقيد، ومع أن التكوين العضوي للإنسان معقد أيضاً، فإن التكوين العصبي أشد تعقيداً، والتكوين النفسي أكثر الجميع. وهناك دوائر عديدة متداخلة تكاد تكون كل منها مغلقة على نفسها، ولها منطقة نفوذ خاصة بها.**

وهذا التركيب في النفس يماثل التركيب العضوي للمخ، فكل وظيفة أو نشاط في الجسم كالسمع أو اللمس أو الذاكرة أو المشي الخ.. لها منطقة في المخ خاصة بها، فإذا أصيبت شلت أو تعطلت الوظيفة. أو أن النفس الإنسانية كسفينة تبني من عدد من العنابر كل منها مغلق لا يوصل إلى الآخر بحيث لو أصيب بعضها بعطب وتدفقت إليه المياه فإنها لا تنفذ إلى بقية العنابر وتغرق السفينة. وبهذه الطريقة يمكن أن تصاب السفينة بعطب جزئي، ويمتلاً عنبر أو أكثر من عنابرها بالماء، ولكنها مع ذلك تواصل رحلتها.

وهكذا النفس الإنسانية تنقسم إلى ملكات كل منها مستقلة عن الأخرى، فقد يكون هناك الذكي، ولكنه لا يكون حتماً المستقيم. ومن قبل تحير عمر أمام فجور القوى وعجز الأمين! وهناك من تفوق ملكاته العقلية.. ملكاته العملية فلا يستطيع القيام بكل ما يؤمن به.

وهناك العكس.. من يرجى دعاؤه.. ولا تقبل شهادته!.

وهناك من هو مثل شوقي - إذا تقدم ذو تقوى بصالحة، قدم بين يديه "عبرة الندم" وقد تكون عبرة الندم أقرب إلى الله من أي صالحة أخرى..

ونستطيع أن نعد العشرات أو المئات من هذه النماذج. فضلاً عن تأثر النفس الإنسانية بعوامل تربية أو بيئية مما يزيد في التعقيد والتعدد. وما يهمننا، هو أن الله تعالى العليم بكل هذا أفسح مجالاً لكل واحد لكي يثبت إيمانه بالطريقة التي تسمح بها طبيعته وملكاته.. وهو يثاب عليها وتعوض زيادته في ناحية تقصيره في ناحية أخرى. فقد يكون حسن العبادة. سيئ الخلق، فيثاب على حسن العبادة. ويجازى على سوء الخلق، وتتوقف النتيجة الأخيرة على الزيادة أو النقص في درجات كل. وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك عند ما قال "أندرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه، ثم طرح في النار (مسلم والترمذي وغيرهما) وهذه أشمل صور المقاصة، وهي توضح لنا أن الإسلام ليس عنصر واحداً، ولكنه مكونات عديدة، إنه حياه، وكل عنصر من هذه العناصر له أهميته الخاصة.

على كل حال، فإن إيضاح هذا أدخل في باب "طبيعة وميكانيزم الإسلام" الذي سنعالجه في القسم الثاني من هذا البحث إن شاء الله.

## الفصل الرابع

### الإسلام عقيدة...

الإسلام أولاً وقبل كل شيء عقيدة، وهو ما ينطوي على أمرين الأول الأسلوب الاعتقادي والثاني ماهية العقيدة وبينهما ترابط الوسيلة والغاية. فلا يمكن معرفة الله ورسله وملائكته واليوم الآخر إلا عن طريق الاعتقاد، أي التصديق برسالة الأنبياء الذين يوحى إليهم، ويعلمون بذلك ما لا نعلم، وليس بمشاهدة عين أو معاينة حس أو إعمال فكر. وفي الوقت نفسه فإن هذا الأسلوب الاعتقادي لم يكن ليعد سائغاً أو مقبولاً لو لم يستهدف الله الذي يعلو على الإفهام ويستعصي على الحواس والأبصار.

والأسلوب الاعتقادي بهذه الصورة من خصائص الأديان الملازمة لها. ولكنه لا يعنى انتفاء وجود أسلوب النظر العلمي والعقلي إلى جانبه إما كعامل مساعد بالنسبة للعقيدة - أو كعامل أساسي في بقية مكونات الدين غير العقيدة، ولكنه في كل حال لا يغني عن الاعتقاد، لأن إعمال الفكر يهدهى إلى الإيمان بالله، ولكنه قد يعجز عن التوصل إلى عالم الغيب، كما قد يشتت به التصور الفكري، لأن الأذهان والعقول - حتى أعظمها - غير معصومة، وتتأثر بعدد من العوامل المرحلية أو البيئية أو الذاتية التي تؤثر على موضوعية أحكامها.

فالأديان يمكن أن تتضمن أسلوب الاعتقاد والنظر العلمي ولكن النظريات العلمية والتجارب التطبيقية لا تحتاج إلى الاعتقاد، وهي تفرقة هامة للغاية على بساطتها لأنها توضح مجالين لكل منهما أدواته الخاصة في التعرف عليه والتوصل إليه.

وقد تعرض أسلوب الاعتقاد لهجوم على أساس أنه "غير علمي"، ولكن المؤمن لا يأبه لهذا النقد، ويرى أن القول بهذا هو الذي ليس علمياً. أولاً: لأنه ليس في جوهر العقيدة ما ينافي أو يصادم مثبتات العلم. وهذه تفرقة هامة. فالأسلوب الاعتقادي قد يعتمد على طرق غير الطرق العلمية ولكنه لا يتقبل ما يصادم أو ينافي بدائه العقل الرشيد وأصول الفكر السليم، وهذا ما يفصل الاعتقاد الإسلامي عن الاعتقاد الوثني أو أي اعتقاد "في" خرافات يرفضها العقل والنظر السليم. وثانياً: لأن أسلوب العلم في التعرف على الحقائق ليس هو الأسلوب الوحيد. إن التجربة الروحية، والبصيرة والإلهام والاستشفاف والوجدان كلها وسائل يمكن أن تؤدي بنا إلى حقائق. وقصارى ما يمكن أن يقال في هذا هو ما أشرنا إليه من أن النظر العلمي هو الأسلوب في العلوم والتجارب التطبيقية، وليس في مجالات الروح أو ما وراء الطبيعة. ثالثاً لأنه ليس من العلم من شيء أن نطلق على شيء نجهله أنه غير علمي لمجرد جهلنا به، فنحن نجهل الكثير، وكان آباؤنا يجهلون أكثر منا، ومع هذا فقد كانت هذه المجهولات موجودة. وقد قال أحد الفقهاء المسلمين "لا أدري نصف العلم" وهذه هي الروح العلمية وإذا كان للعلماء المحدثين ما يضيفونه فهو أن لا أدري قد أصبحت أكثر من نصف العلم! لأن الكشوف والأبحاث الأخيرة أثبتت أن معرفة الإنسان على كثرتها ليست إلا قطرة في بحر المعرفة. وصدق الله ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.



وهناك عامل آخر فرض الأسلوب الاعتقادي وأوجبه هو أن الاعتماد على النظر العقلي لا يتهيأ لكل الناس، فقد كان وسيظل أسلوب القلة في حين أن أسلوب الاعتقاد هو سبيل الكثرة وأسلوب الجماهير. والأديان مذاهب جماهيرية فأرسل الله الرسل هاديين ومعلمين ومربيين ومقدمين للجماهير فلسفة كانت تعز عليهم لولاها. ومن هنا أصبح الدين فلسفة الجماهير، كما أن الفلسفة هي دين النخبة. ويعلم الذين ينقدون هذا السبيل أن الصفة الجماهيرية للاشترابية إنما جاءت عن طريق الاعتقاد. وليس عن طريق النظر العلمي أو المعادلات الجبرية أو المضاربات الاقتصادية التي يحفل بها "رأس المال". وهناك بعد أفضلية أخرى للاعتقاد الديني على غيره هي أن الاعتقاد الديني لا بد وأن يقوم على أساس أخلاقي في حين أن أي اعتقاد قد لا يتوفر له هذا الأساس.

وهناك مبررات ودواع أخرى للأسلوب الاعتقادي سنعرض لها في مناسبات تالية...

والعقيدة الإسلامية، وهي أكبر وأهم عنصر من عناصر مكونات الإسلام، تتضمن الإيمان بالله. وبرسالته. وباليوم الآخر أو عالم الغيب وسنعالج كل نقطة على حدة.

\*\*\*

## أ. الإيمان بالله..

الإيمان بالله هو حجر الأساس في كل دين. وواسطة العقد فيه وفكرة الله هي الشمس الباهرة التي كشفت الأديان عنها والإضافة الثمينة التي أسهمت بها. ذلك أنه عندما يظهر للناس طرف من هذا السر العظيم وينير نفوسهم المظلمة شعاع من أشعته. تغمرهم سعادة الإيمان. وراحة الضمير واستقرار التائه ويكتسبون قوة كبيرة يكبحون بها جماح العواطف ويقاومون بها مغريات الانحراف ويلزمون أنفسهم الخضوع لما تقضى به تعليمات الدين. ويقوم على أساس هذا الإيمان الشخصي والالتزام العام سلام النفس ونظام المجتمع...

وقد مرت "فكرة" - ونقول فكرة - الله أو تصور الناس لها. أو حتى إبراز الأديان لها - برحلة طويلة تتلاءم مع الرحلة الطويلة التي أراد الله للبشرية أن تقطعها. فلم تستطع البشرية في طفولتها أن تتصور الله التصور الذي يقرب من الحقيقة. لأن هذه الحقيقة كانت أعلى من فهمها وقتئذ، رغم تلك النفثة الإلهية في النفس البشرية التي كانت تقودها إلى الله، ورغم أن مظاهر قدرته وآيات قوته. وظواهر إرادته كانت تشعرها به، كانت البشرية كما وصفها، فأحسن وصفها شوقي:

رب شقت العباد أزمان لا	كتب بها، تهتدى ولا أنبياء
ذهبوا في الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قوياً آلهاء..	فله بالقوى إليك أنتها
وإذا آثروا جميلاً بتنزيه	فإن الجمال فيك حباء
وإذا انشأوا التماثيل غراً	فأليك الرموز والإيماء
وإذا قلدوا الكواكب أرباباً	فالمراد الجلالة الشماء

وإذا يعبد الملوك فإن الملك  
 وإذا تعبد البحار مع الأسماك  
 ونجوم السماء والإسلام والأرحام  
 لعلاك المذكرات عبيد  
 جمع الخلق والفضيلة سر شف  
 فضله تحبوه به من تشاء  
 والعاصفات والأنواء  
 والأمهات والآباء  
 خضع والمؤنثات إماء  
 عنه الحجاب فهو ضياء

\*\*\*

ونستطيع أن نتابع فكرة الله من الإله المحلى الذي أظهرته الديانات الوثنية عندما كانت مقصورة على بلد أو قطر أو جنس، حتى آخر صورة له في "جيهوفا" إله بنى إسرائيل كما تظهره كتبهم المحرفة<sup>(١٦)</sup> كاله قبلي يؤثر بنعمته شعبه المختار وحده ويجعل بقية الناس تبعاً له وخولا ويسوقهم له بقضيب من حديد، حتى "الإله الإنساني" مثل إيزيس أو المسيح - كما تظهره الأناجيل المحرفة<sup>(١٧)</sup> هذا الإله الإنساني الذي قد يكون أباً أو أمّاً أو زوجة والذي يمثل صفات الحب والحنان وبقية الخصائص الإنسانية وتتنحصر هيمنته على الإنسان، حتى الإله الكوني المطلق كما يظهره الإسلام والذي يدين له الوجود والأكون كلها، ولا تحيط الإنسانية إلا بطرف ضئيل من علمه وإرادته..

والمسلمون لا يستشعرون حساسية من هذا السياق، لأن الله تعالى وضع للبشرية نظاماً تتجلى فيه إرادته، ولأن الإسلام يفترض عجز البشرية عن الإمام بكنه الألوهية الحقة، وحاجتها إلى الأنبياء الذين ينقلون القبس المضيء عن طريق الوحي. فضلال البشرية وتخطيها واجتهادها لا يمس قداسه الفكرة، بل على العكس هو ينم عن أصالتها، وأنها لازمت البشرية منذ طفولتها وكبرت معها، كما عملت هي نفسها على نمو البشرية.. كما لا يستشعر المسلمون حساسية من فكرة أن الخوف من عناصر الطبيعة أو الرجاء فيها هو الذي ساق البشرية إلى فكرة الإله. لأن المسلمين يؤمنون بأن كل الظواهر الطبيعية إنما هي مجلي إرادة الله وقوته... وهذا كله يتم طبقاً لمشئته الله السابقة وقضائه للبشرية أن تسلك هذا المنهج من الطفولة حتى البلوغ حتى الشباب ثم الكهولة حتى يأذن الله بأقول هذا الكوكب، كما أذن بوجوده من قبل، وليست البشرية بأفراحها وأتراحها، نزواتها وحكمتها، سلمها وحرابها.. فنونها وآدابها، وملايين السنين التي قضتها، إلا قطرة من بحر أو حرف من كتاب في حساب الله عز وجل...

وقد ضرب القرآن المثل بإبراهيم أبي الأنبياء في بحثه عن الله.. وكيف أنه لما رأى كوكبا قال هذا ربي ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ \* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقبل هذه الآيات مباشرة من سورة الأنعام ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فلا عجب إذا أثار ﴿مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحاسة الدينية في النفوس، ودفعها إلى التفكير في الله. والجديد الذي يضيفه الإسلام هنا هو أن النفس الإنسانية وإن قادتها فطرتها السليمة إلى الله - خالق

١٦. يؤمن المسلمون أن اليهودية إحدى الديانات السماوية، وأن موسى نبي ورسول كريم، ولكن شريعته وديانته تعرضت لتحريف خرج بها عن حقيقتها، والحديث هنا هو عن هذا التحريف.

١٧. ينطبق على المسيحية ما ينطبق على اليهودية، والمقصود هنا المسيح الذي حرفت طبيعته ورسالته.

السموات والأرض - فإنها تعجز عن التصور الدقيق أو الكامل لله، ومن ثم يصبح من الضروري إرسال الوحي الذي يضع الأمور في نصابها حتى لا تضل النفوس في التفاصيل، أو تتحكم العوامل البيئية الذاتية والمتغيرة في الفطرة السليمة، فقد ينصور الناس في القطب الجنة شمساً ودفناً، كما يتصورها الناس في خط الاستواء برداً وسلاماً. ومثل هذه التصورات طبيعية جداً في غيبة الرسل والوحي حتى تبلغ البشرية بصفة عامة سن الرشد وتستطيع أن تدرك وتفهم ديناً واحداً هو آخر الأديان وأشملها وهو الإسلام.

وهناك سبب آخر ذكره القرآن كثيراً لإيضاح أسباب توالى الأديان والرسل، وعدم الاكتفاء بنبي واحد، ذلك هو التحريف الذي تعرضت له الكتب المقدسة. وهو سبب توحى به طبيعة المجتمع وعدم وجود وسائل التسجيل والقرون الطويلة التي مرت قبل إثباتها كتابة، واختلاف الرواة. وقد أكدت الدراسات التاريخية هذا كله. وبالنسبة لليهودية فقد تحطمت ألواحها في عهد موسى نفسه، ثم توالى الترجمات بالمسخ والتشويه حتى أبرزت لنا أخيراً ما سمي "العهد القديم" والنظرة العابرة لما حواه من خرافات وأساطير وتعبيرات مشينة وقصص جنسية فاضحة لا تحوجنا إلى دليل على التحريف. أما بالنسبة للمسيحية، فإن عدم كتابه الأنجيل إلا بعد فترة طويلة واختلاف ترجمتها وانحصارها بعد ذلك في أيدي الكهنة لفترة طويلة.. يؤكد كذلك التحريف. وقد قرأت أخيراً ترجمة لكتاب ألماني بعنوان "من لوثر إلى هتلر" ترجمه رمزي يسي وهذا الكتاب يبرز زعيم البروتستانتية، ورائد حرية الفكر في صورة مخالفة. فهو كاذب متعصب، انحاز إلى جانب النبلاء ضد الفلاحين خلال ثورتهم التعسة سنة ١٥١٥، وحرص النبلاء على تقتيل الفلاحين والتمثيل بهم، لا يتورع عن الكذب إذا وجد في ذلك مصلحه فقال "ماذا يضر الإنسان إذا كذب كذبا محموداً بسبب أمر ذي أهمية وفي سبيل الكنائس المسيحية" (ص ٧٧) وقال "إن التزامنا الصدق ليس ضرورياً بالمرّة - أنني أعد كل شيء موجه ضد فساد البابوية وغوايتها مباحاً لا غبار عليه" (ص ٧٤).

### ويستطرد مؤلف الكتاب:

"ولم يكتف لوثر بذلك، بل كان على أتم استعداد في سبيل تفسير الإنجيل على النحو الذي يريد أن يمسح ما شاء من نصوصه ويقول المؤرخ جانسيين في ذلك "إن أكبر إثم أرتكبه لوثر هو أنه لم يتورع في سبيل تعزيز مذهبه عن مسخ فقرات عديدة من الإنجيل وتزويرها.

"وقد يضيق المقام عن إثبات تلك الفقرات المتعددة التي أضاف إليها لوثر أو حذف منها أو حرف فيها لكي يوائم بينها وبين مذهبه الجديد ولا شك أنه فعل ذلك عن عمد وقصد. ولما كان قد اثبت هذا الكثير من المؤرخين الذين لا يتطرق إلى بحوثهم أي شك، فإن الإطالة هنا تعد تكراراً لا مبرر له. ويكفي أن نحيل القراء إلى جانسيين مجلد ١٤ ص ٤١٨ "١ هـ ص ٧٤".

فإذا كانت المنازعة ما بين لوثر والبابوية تدفعه إلى هذا في القرن السادس عشر، فألي أي مدى وصل التحريف بفعل تلك المنازعات الدموية التي مزقت العالم المسيحي من القرن الرابع حتى القرن السادس عشر.. وفي وقت كانت الأمية فاشية. ولم يكن الإنجيل مطبوعاً بحيث لم يكن هناك عقبات عمليه تحول دون التحريف..

وليس من الضروري أن يكون التحريف عملية كيدية أو تحقيقاً لأهواء خاصة أو لمكاسب يظفر بها السدنة والكهنة، وإن كان هذا بالطبع يحدث، ولكن التحريف يمكن أن يحدث لمجرد أن "طال عليهم الأمد" أو

لغلبة الضلالة على الجماهير أو لميل الناس إلى القديم المألوف وتأثرها برواسب الشرك. وهو ما حدث لبني إسرائيل عندما حنوا إلى عبادة العجل وكفروا بموسى..

وفي مثل هذه الحالات لا يقتصر التحريف على التفصيليات ولكنه يتناول جوهر العقيدة، لأن رواسب وجذور الوثنية القديمة المتغلطة تتغلب على مبادئ الدين الجديد، فلا تلبث أن تمسخ حقيقته وتلبسه ثوباً وثنياً. وقد نشأت المسيحية في ذروة الوثنية اليونانية/الرومانية التي طفحت بها المثلوجيا اليونانية وكتابات هوميروس وغيره، وكان ابرز شخصية فيها هي شخصيه زيوس الذي كان جديراً بأن يقب باله الخيانة الزوجية بدلا من لقب "رب الأرباب" أو كبير الإلهة، فقد كان من دأب هذا الإله أن يتقمص في مختلف الصور البشرية أو الحيوانية ليوافق نساء البشر وينجب منهن أنصاف آلهة كهرقل مثلاً، كما صورت المثلوجيا أيضاً كيف أن "افردويت" آلهة الجمال قربت رمانه من بين ثدييها، وأصبحت حاملاً، وبعد ستة أشهر وضعت طفلها من أحد جنبيها حتى لا تمس عذريتها لأن افردويت هي الأم العذراء<sup>(١٨)</sup>.

بل أن التاريخ اليوناني روى لنا أن الاسكندر كان نصف إله لأن "أبولو" تغشى أمه "أوليمبيا" ونقلت كل هذه الصور والأفكار الوثنية إلى العالم الروماني فأله القياصرة ومنحهم نسباً إلهياً.

وقد وقعت المسيحية الناشئة بين يدي "رسل" من اليونانيين والرومان كانت هذه الرواسب متأصلة فيهم بحيث غلب التقليد الوثني القديم، وحدث ما يشبه أن يكون حاله "إسقاط" وثني على المسيحية فأولت الولادة العذراء للمسيح التأويل الوثني. واعتبر الابن ألهاً. وعادت الوثنية القديمة نفسها، ولكن في صورة مقلوبة، فلما لم يعد الإنسان إلهاً، أصبح الإله إنساناً، وليس هناك فرق لأن المناط في الوثنية هو التجسيم للإله. سواء الإله إنساناً، أو الإنسان إلهاً..

ونتيجة لهذا كله قام بناء لاهوتي عسير، صعب، معقد، لا يفهم أو يساغ يضم الأب والابن والروح القدس. وجعل المسيح إلهاً وإنساناً، أو إلهاً، وليس إنساناً، أو إنساناً ينحدر من إله، وصلب هذا الإله المسكين ليفدى ذنوب البشر، وليكفر عن الخطيئة الأصلية.

وتقبلت أوروبا الحديثة هذا التصور الوثني لأنها لا تزال حتى الآن تعيش في حضارة اليونان والرومان. بل إن حضارة الرومان واليونان تعيش بعد الميلاد على ضفاف ألتا يمز والسين أكثر مما عاشت قبل الميلاد على هضاب الكابيتول أو ضفاف التيبير.

مع هذا، ومع أن الفقه المسيحي حاول بكل قوة تفسير هذه العملية وتسويخها، فإنها كانت سبباً في خلافات أسالت دماء البشر ما بين الشيع المسيحية المختلفة، كما أعلنت فرقة أخرى كفرها بكل هذا اللاهوت، وأنها لا ترى في المسيح أكثر من نبي. وأبعدت فكرة "الإله الشخصي" كل المفكرين، وكانت السبب في عزوف معظمهم عن المسيحية، وأخذ الانطباع السيئ عن الدين، أما الذين تقبلوا المسيحية فقد اعتبروا كل ما جاء في الأناجيل من عبارات "ابن الله" أو "الإله المخلص" والفداء والخطيئة على أنها عبارات مجازية، وان المسيح ليس إلا داعية عظيم أو نبياً. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا هو إيمان كل المفكرين المسيحيين الأوربيين. وان فكرتهم عن المسيح أقرب إلى القرآن مما هي إلى الإنجيل، ولا أستطيع أن أحصى شواهد ذلك فما من كتاب عن مفكر أو مصلح أو داعية أقرأ عنه إلا وأرى أنه مثل أينشتين، يكفر بالإله الشخصي

١٨. النار المقدسة تأليف. ب. ز. جولد برج ص ١٣٦.

ويؤمن بالإله الكوني، أو مثل فلورنس نايتنجل التي تؤمن بالإله الأب وتكفر بالإله الابن.. أو مثل شو.. الذي قال "إن المسيح قد محي وبنيت المسيحية التاريخية على مذبح جيهوفاً المقدس بالمسيح نفسه ضحية لها"<sup>(١٩)</sup> أو مثل فولتير الفرنسي وتوم بين الإنجليزي اللذين كانا يؤمنان بالتطور الخالق أو الإله الطبيعي أو خرشوف الروسي الذي حُق له أن يتهم "إننا لن نعترم الحرب في سبيل جسد الإله ولن نغطي المعمورة بالتواييت في سبيل تابوت، فإن هذا هو ما كان يحارب الصليبيون في سبيله"<sup>(٢٠)</sup> أو مثل المفكر "جود" الذي لخص نتائج كتابه عن "الله الشر".

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله، وأنه يُعنى ويهتم بعالمنا، وأنه مبدأ الخير واصل النظام الأدبي في الكون، وأنه بالتالي أصل التجربة الأدبية، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتناً للشر وكفاحنا ضده، كما تقبل أيضاً دعوى أننا إذا صلينا له، فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقولا كذلك بحكم الأدلة، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفراداً موهوبين ليقدّموا تعبيراً واعياً لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القانون الأخلاقي. وهؤلاء الأفراد الموهوبون بصفة خاصة هم المعلمون الدينيون والصوفيون والأنبياء.

إن دعوى المسيحية غير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسيح ابن الله أو أنه بأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي وأن الله قد خلق الإنسان ليحبه، ولكن الإنسان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلاً لهذا الحب وعوقب بالسقوط، وأن الإنسان هو وحده من بين المخلوقات من يملك نفساً أو شخصية"<sup>(٢١)</sup>

\*\*\*

أما الإسلام فإننا لا نرى قط تفسيراً لاهوتياً لفكرة معقدة، ولا نرى تجسماً بدائياً كالذي تصوره الأولون في طفولة البشرية، ولا نرى تخصيصاً لله بجنس أو مكان أو زمان.. إن الله في الإسلام يمثل التجريد التام من كل تجسيم أو تشبيه إلى درجة يطلق معها على الله أسماء المصادر كالعدل والحق والسلام والنور، فهو نور السموات والإسلام وإليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، ولا تدرکه الأبصار، وليس كمثل شئ لا يحيطون بشيء من علمه، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا.

ويقترب من هذا التجريد، ويعززه، ويقطع الطريق على أي صورة من صور الشرك أو الوثنية، ويحول دون أي إثارة من التحريف. تأكيد وحدانية الله فلا إله إلا الله. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ \* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ والآيات التي تفيض في هذا المعنى وتؤكد وتستأصل استئصالاً مظنات الشرك متعددة ومشهورة.

ولا تقتصر أهمية التوحيد على ما أشرنا إليه من قطع الطريق على كل مظنات الشرك أو تلاعب التصور الإنساني، إذ أن هناك معنى إيجابي رائع، لعل أفضل من أشار إليه ووضحه مفكر مسلم هندي هو همايون كبير الذي رأي في إحدى المقالات أن "ثلاثة أفكار لأبد منها لنمو العلم أولاها: الاعتقاد بأن الكون

١٩. مقدمة الفتاة السوداء الباحثة عن الله - ج. ب. شو.

٢٠. مجلة "كاتوليك دابجست" عدد فبراير سنة ١٩٥٨ ص ١٠٥

٢١. الله والشر تأليف ج. إ. م. جود ص ٣٥٩

متجانس، وليس منقسماً إلى ميادين لكل منها قوانين خاصة تختلف عن القوانين التي تسود في الميادين الأخرى. وثانيها الاعتقاد بأن قوانين الطبيعة متسقة، وليست عرضة للتغيير أو التبديل. وثالثها الإيمان بقيمه الوحدات كل على انفراد.

والفكرتان الأولى والثانية بينهما صلات واضحة، ويمكن اعتبارهما في الواقع وجهين لحقيقة واحدة، فبغير الكون الموحد لا يكون قانون كلي. ولو وجد عالمان أو أكثر فإن هذا التعدد يكون أساسه التمييز، وتكون هذه العوالم متميزة بقدر خضوعها لقوانين مختلفة. لهذا فإن كلية القانون تعتمد على الاطراد والاتساق في الكون. وقوانين الطبيعة لا يمكن أن تكون متسقة ما لم تكن الطبيعة التي تعبر عنها هذه القوانين متسقة هي أيضاً.

والإيمان بالاتساق في الطبيعة يمكن أن يفسر على أحد هذين النحويين: إذا كان الكون يعتبر ملكاً للآلهة مختلفين أو ربما متنافسين يتنازعون لسلطان، فإن من البديهي في هذه الحالة ألا توجد قوانين متسقة تحكم الكون.

والإله الواحد معناه كون واحد، وإن فمعناه أيضاً قانون واحد، ولهذا كان التوحيد أحد الشروط اللازمة لظهور العلم.

كذلك يربط همايون كبير بين التوحيد الإلهي والديمقراطية فيقول:

"والواقع إن فكرة وحدة القانون لم تظهر حتى استقرت فكرة وحدة الكون، فلو كان هناك إلهة مختلفون يتنازعون ملكية مناطق العالم لكان من الواضح أنه لا يمكن تطبيق نفس القانون على جميع الناس". وهو يربط على هذا أن الإيمان الراسخ بتعدد الآلهة هو السبب في أن المجتمع الأثيني - مبدع الديمقراطية - لم يكن ديمقراطياً حقيقياً، وبالمثل القانون الروماني، ويضيف همايون كبير

"إذا نحن حللنا المبادئ الأساسية للإسلام ظهر لنا تشابه كبير بينها وبين مبادئ العلم والديمقراطية، فإذا أضفنا إلى هذا التشابه أن التقدم المطرد قد أتى مباشرة بعد الإسلام، وجدنا مبرراً قوياً للقول بوجود علاقة قوية بين الأمرين، وليس ما يميل بنا إلى هذه الفكرة في المحل الأول هو كثرة عدد العلماء العرب المتصل في تقدم العلم منذ ظهور الأرض<sup>(٢٢)</sup>.

وبالطبع، فإن همايون كبير لم يحاول أكثر من أن يفسر ما أجمله القرآن في إعجازه في جملة واحدة "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون" والضمير هنا يعود - كما هو معروف - إلى السموات والإسلام.

وهناك ناحية أخرى قد لفتت - على أهميتها - الكتاب..

فعندما شدد الإسلام على معنى الوجدانية، فإن ذلك كان للقضاء على كل المنافذ إلى الوثنية أو الآثار الباقية لها، وفي هذا السبيل اعتبر كل تمثال وثناً وحطمه، فإذا قيل إن الناس لن تعبد الأصنام والأوثان، فليس

---

٢٢. مقتطفات من كتاب "العلم، والديمقراطية والإسلام" تأليف همايون كبير ترجمة عثمان نويه - الإدارة العامة للثقافة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي الصفحات من ٩ إلى ١٩. وقد كان همايون كبير وزيراً للثقافة والبحث العلمي في حكومة الهند.

لهذا التشديد على الوحدانية حكمة. فالرد أن ينظر الناس فيما بينهم وسيرون الأوثان تسد عليهم المنافذ وتملاً الميادين وتتصدر الهيئات العامة! وفي بعض الدول الاشتراكية توجد تماثيل للنين أو ماركس أو ستالين بأحجام تفوق أحجام تماثيل رمسيس الثاني، كما توجد في أمريكا أيضاً تماثيل لواشنطن ولنكولن في مثل هذه الأحجام. ومجرد وجود هذه التماثيل ذات الأحجام "المهولة" الرهيبة، وما يحوطها من أساطير تتسجها ليل نهار أجهزة الدعاية توهن في شخصية الفرد وتؤدى إلى نوع من شرك الذين قالوا "إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى" أو إلى نوع من الوثنية في تلك المجتمعات التي لا تؤمن بالله! فلا جرم إذا شدد الإسلام مرات ومرات في وحدانية الله حتى يمكن صد جائحة هذه الوثنية العصرية الجديدة، وقد يكون المجتمع الحديث أحوج، من المجتمع القديم، إلى صيحة القرآن ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً.. وتخلقون إفكاً﴾.

وفي هذا التجريد والتفريد تقترب صورة الله من الصورة التي تخيلها الفلاسفة والمناطق والرياضيين، صورة القيم المجردة، والمثل العليا من خير، أو عدل أو حق أو سلام أو القانون الواحد الأول والآخر الظاهر والباطن.

وفي مقابل هذا فإن القرآن يقرب صورة الله إلى الإفهام بتعبيرات تعطى معنى الحياة مثل ﴿ثم استوى على العرش﴾ ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها..﴾ أو يلحق به صفات الجبروت الجبار - المتكبر - المتعال.. الخ.. ومن الواضح بالطبع أن هذه التعبيرات إنما يراد بها مجرد التقريب وأن كلمات اليد، أو الأذن الخ.. إنما هي ليفهم الذين لا يفهمون التجريد، كما أن صفات الشدة والبأس والجبروت والانتقام لابد منها أيضاً حتى تخشع نفوس الظلمة والمتجبرين، والذين لا يفهمون إلا لغة القوة. وقد جبل الله الناس على طبائع شتى ومنهم الذين لا يفهمون إلا هذه اللغة. ويقابل صفات الجبروت والانتقام.. صفات العدالة والرحمة والرفقة وأن كل سورة قد توجت باسم الله "الرحمن الرحيم".

ومن أبرز خصائص طريقة الإسلام في الاستدلال على الله.. الربط ما بين الله.. وما بين آيات خلقه الناطقة بعظمته المسبحة بقدرته سواء كانت ظواهر كونية أو قوانين طبيعية، فالسموات التي رفعها من غير عمد.. والنجوم ببروجها ومواقعها.. والشمس والقمر والليل والنهار " لا الشمس ينبغي أن تترك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" والأمطار التي تنزل إلى الأرض فتحببها بعد موتها ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ \* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ والأنعام والطيور، والحياة والموت، وهذه الأجيال والقرون التي توالى بعضها تلو بعض، وأثار الحضارات البائدة التي خلفوها من بئر معطلة أو قصر مشيد ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ \* كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ \* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

والحق أنه ما من واحد يقرأ القرآن إلا ويفترض أن يكون المسلمون أكثر الناس حبا للطبيعة، وتذوقاً لمشاهدها، وإماما بعلم النبات والحيوان والجيولوجيا والبيولوجيا والظواهر الجوية والفلك.. وأن يكونوا أكثر الناس ارتحالا تطبيقاً لتوجيه القرآن المتكرر والمترادف الذي يبدأ بكلمة ﴿قل سيروا في الإسلام﴾.

ويمائل توجيه القرآن في التعرف على الله عن طريق خلقه، الحديث عن قدرته الشاملة ﴿ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مَنْ مَثَّلَ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾.

وأخيراً فإن الله رمز الكمال الأسمى، ولكن هذا الكمال مطلق، أما الكمال الإنساني، كما نفهمه، فأسلوب الإسلام ليس نسبته إلى الله، الذي يعلو على المقاييس الإنسانية ولكن تقديم شخوص أحياء يمثلون أقصى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن تصل إليه. هم الأنبياء، كما يحفل القرآن بالتوجيهات الأخلاقية التي يريدنا الله للمؤمنين.

وقد يسأل سائل عن الحكمة في هذا التصوير المعجز، الواضح، المحدد لله في الإسلام.

إن هناك أكثر من حكمة، فمن ناحية، فإن الإسلام الذي لا يمارى ولا يمالى يعلم حق العلم أن الإنسان بحكم تكوينه ليس إلهاً، وما ينبغي له أن يكون إلهاً، وواقع الحال يثبت هذا، فلن يمكن بالطبع أن يكون كل واحد إلهاً.. لأنه لن يجد من يتأله عليه! وتاريخ الفراعنة والملوك والأباطرة الذين ألخوا في العصور الأولى بما فيهم أفضلهم مثل تحتمس والإسكندر وقيصر والإمبراطور الرواقي المفكر ماركس أورليوس أدلة ثابتة على غلبة الضعف والخطأ والنزق والطيش، دع عنك بقية الطواغيت الذين ألخوا الشعوب وطغوا في الأرض. وليس من الضروري أن يكون الإنسان إلهاً، لتظهر طبيعة الغشومة والظلم الكامنة فيه، إذ يكفي فحسب أن يكون حاكماً.. أو رأسماًياً بل إن الكتاب والمفكرين يكشفون عن هذه الطبيعة نفسها عندما يزددهيم الغرور أو يملكهم التعصب، بل إن مجرد "بسط الرزق" للناس يغريهم بالطغيان، وقد طغى الأغنياء على الفقراء.. وطغت الدول الغنية على الدول الفقيرة وبغى بريطانيا طوال القرن التاسع عشر، وعريدة أمريكا في القرن العشرين دليل على ذلك.

لا يمكن إذن للإنسان أن يكون إلهاً، ولا بد له من إله، وبقدر ما تكون صورة هذا الإله واضحة، قوية، لا لبس فيها ولا غموض، مهيمنة على الإنسان، وبقدر ما تمثل هذه الشخصية العدل، والقدرة، والحكمة والمثل الأعلى، بقدر ما يؤمن الانحراف ويكفل الاتباع، وبقدر الغموض والتميع فيها بقدر ما يكون التحايل والتملص وبقدر ما لا يمس الإيمان بها إلا طبقة سطحية ضحلة من النفس.

وأى دين لا يعترف بالإله الأعظم لا يكون له قيمة ولا يقدر له الاستمرار أو البقاء، فضلاً عن التأثير على إتباعه. وقصة الإله الإنساني أي الإله الذي يبده أو يخلقه الإنسان تثبت ذلك على مدار التاريخ سواء فيها الإله الوثني القديم الذي صنعه العربي من العجوة! والإله الذي أراد روبربير أن يرمز به إلى الكمال المعنوي أو الذي حاوله السلطان الهندي جلال الدين أكبر. وقد أنتهي عدد كبير من المفكرين إلى "ضرورة" أو وجهة وجود الله. وقد كان فولتير ذلك الهدام الكبير هو الذي قال "إذا لم يكن موجوداً لوجب أن نوجده" كما قال وليم جيمس "ينبغي لنا كفلاسفة، ومن أجل تحقيق غايتنا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإله، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية"<sup>(٢٣)</sup>. وفي الاتحاد السوفيتي أيضاً وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم "الباحثين عن الله" بذلت جهودها للتوفيق بين فكرة الله والماركسية ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن الله.. ولكن لبناء الله!

٢٣. إرادة الاعتقاد لوليم جيمس ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٠٧.



والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم الله في كل اتجاه، فالباحثون عن الله ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناء فإن الله - في نظرهم - لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسانية الجماعي يجب أن يبني إليها جماعياً اشتراكياً سامياً، ووجدت هذه النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينين القديم ظهيراً وفيلسوفاً، كما فتنت عدداً آخر من الشيوعيين القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركي الذي كان قد آثر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسمت به الثورة، وكان تأييد جوركي لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها أسم "مدرسة كابري".

وظهر أثر هذه الفكرة في رواية جوركي "الاعتراف" وانتقد لينين ذلك وكتب "إن القسم البلشفي في الحزب لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مدرسة كابري" وعندما كتب جوركي مرة .. "وأما فيما يتعلق بالبحث الله فيجب تحييته مؤقتاً" كتب إليه لينين "كيف! ألسنت ضد البحث عن الله إلا مؤقتاً، إذن فقد كنت تعارض البحث عن الله لتستعيز عن ذلك ببناء الله. إن البحث عن الله لا يتميز أبداً عن بناء أو خلق أو ابتداء الله.. كما أن الشيطان الأصفر لا يتميز عن الشيطان الأزرق!!".

ولعل أفضل محاولة لإيجاد ديانة إنسانية هي ما حاوله الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت صاحب المذهب الوضعي الذي كفر بغيبيات الأديان ولاهوت الكنيسة. فوضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بالله فوق البشر. وحاول أن يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخلص فرديريك هاريسون الذي ظل رئيساً للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عاماً. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وتبرع للدفاع عن عرابي.

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين؟ لا شئ تقريباً. وقد وصف هكسلي محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحاً منها المسيحية!" كما وصفت بياتريس وب، صديقة فرديريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها "جهد باسل لإيجاد ديانة من لا شئ، ومحاولة تستحق العطف والثناء من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها<sup>(٢٤)</sup>" ...

والدلالة التي تدل عليها كل هذه المحاولات هي أن هناك حاجة ملحة لإيجاد ديانة استشرها وحاول إيجادها مفكرون حتى من المدرسة الماركسية، وإذا كان لينين قاوم ذلك بشراسة، فهذا ما يعود إلى أن الماركسية نفسها ديانة تقوم علاقات الإنتاج فيها بدور "القدر" اليوناني القديم ويقوم "الحزب" فيها بدور الكنيسة، وقد فشل كل هؤلاء المفكرين رغم إخلاصهم وإيمانهم وأصالتهم الفكرية..

**وكل انصراف عن الأديان السماوية إما أن يكون تحولاً نحو الوثنية، أو عبادة للطغاة من الحكام أو المنظرين.. وأما أن يكون هرباً من التفكير، وإيثاراً للأثانية. وأن يجعل الفرد من إلهه هواه. ولا يحتمل الأمر ثالثاً مع هذين.**

قد يقال إن تشديد الإسلام وتأكيده لمعنى "عبودية" الإنسان يصدّم مشاعر الكثيرين. ونحن نفهم هذا، ولكنه لا ينفى أن ذلك ليس إلا مرضاً من أمراض الحساسية الإنسانية، التي يجب على الإنسان أن يتخلص

٢٤. أنظر كتاب مارجریت كول "بياتريس وب" ص ٢٣٠.

منها لا أن يستسلم لها. والإسلام لا يوافق، وقد كان من الضروري له أن يصارح الإنسان بهذه الحقيقة حتى لا يطغى الإنسان، والإنسان عندما يطغى يصبح مسخاً مقيماً. بل تصبح الوحوش ملائكة بالنسبة لما يقترفه من جرائم وموبقات..

وعبودية الإنسان لله هي ثمرة خلق الله للإنسان وهي نتيجة منطقية لا خفاء فيها ولا حساسية. وإذا وضع الإنسان في تقديره عظمة الله، وأنه ليس فحسب خالقه وجابله في أحسن تقويم، وواهبه العقل والحواس والحياة، بل هو أيضاً الخالق لهذه الأكوان التي لا حصر لها والتي لا تعد الكرة الأرضية إلا ذرة في صحراء.. ولا تعد ملايين السنين إلا ثانية من أعمار. وأنه (أي الإنسان) من ناحية أخرى يضعف أمام الجمال ويؤخذ بالعبقرية ويسترق للإحسان والمعروف. ويبذل حياته في سبيل قيم ومبادئ... فإنه سيفخر بعبوديته لله رب الأكوان.. وخالق الحياة والموت. وأصل المثل العليا..

وأي واحد يستشعر أنفة من ذلك يكون كالذي قتل شخصاً لأنه نظر - مجرد نظر - إلى امرأته بدعوى الشرف المزعوم فحكم عليه بالأشغال الشاقة، وفي الليمان أصبح "عشيقة" لمجرم عات!! ومن يأنف من عبودية الله يصبح عبداً لنجمة سينمائية، أو حاكم بأمره أو داعية. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

وبعد. فقد شاءت رحمة الله أن تجعل من الإنسان خليفة له على الأرض، وزودته بالعلم الذي تميز به على الملائكة نفسها.. وأمر الله الملائكة أن تسجد له.. فأى كرم ومنة أعظم من هذا ...

وهكذا يتضح لنا أن تصوير الإسلام لله أفضل بمراحل من أي تصوير آخر، فهو أفضل من التصوير الفلسفي الذي يجعله قيمة مجردة، لأن الإسلام يضيف الحياة والقدرة والإرادة إلى هذه القيم. وهو أفضل من صور التجسيم الوثني التي تقضي على التجريد الواجب. وهو أفضل مما صورته الكتب المحرفة لبني إسرائيل أو البناء اللاهوتي المعقد الذي جاءت به المسيحية..

## ب - الإيمان بالرسالات السماوية..

وتتضمن العقيدة الإسلامية الإيمان بالرسالات السماوية والرسل الذين حملوا هذه الرسالات وأن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية ونبي الإسلام وخاتم الرسل والأنبياء..

وهذا الاعتقاد هو ما توجهه الآيات ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة ١٣٦، وهي الآية التي كررت بألفاظها تقريباً أو بمعانيها في عدد كبير من السور.

وهناك آيات لا يقتصر التوجيه فيها على الإيمان بهؤلاء الرسل، والرسالات بالذات، ولكنها تشير إلى رسل آخرين لم يذكرها على وجه التعيين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾. ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهناك آيات أخرى تنص على أن الله سبحانه وتعالى لا يسائل حتى يرسل رسولا مثل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾.

ومحصلة هذا أننا لا نعلم على وجه القطع عدد وشخصية الرسل، وإن كنا نسلم بالنص القرآني أن كل أمة كان لها رسولها الذي يدعوها، بلغتها، إلى عبادة الله.

ويدخل بالطبع في الإيمان بالرسالات الإيمان بأن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية.. وأن نبيه هو خاتم الأنبياء، فلا رسالة ولا أنبياء بعد الإسلام، وهو ما تنص عليه الآية ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ومع أن النص هنا منصب على أن الرسول هو خاتم النبيين، فإن هذا ينسحب على الرسالة أيضاً، إذ لا رسالة دون رسول، وقد أثبت الواقع صدق ذلك، فلم تظهر بعد الإسلام رسالة ولم يبق بعد محمد ﷺ نبي.

والإسلام يجعل للأنبياء مهمة مزدوجة، وينظر إليهم كنوع من أجهزة الاستقبال والإرسال الآدمية. فهم يتلقون الوحي السماوي وهم يذيعون الرسالة التي يتلقونها دون زيادة أو نقصان وإن كان لهم حق التفسير والإيضاح في حدود ترسم لهم.

ونحن لا نعرف حتى الآن، ولن نعرف، حقيقة الوحي الإلهي فاللفظة نفسها "توحي" بالخفاء وتشير إلى الإيمان النفسي وبغير واسطة مرئية. وقد استخدم القرآن اللفظة في مدلولات متعددة مثل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا \* بَانَ رَبُّكَ أَوْحَى لَهَا﴾. ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾. ﴿إِذْ أُوحِيَإِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾. وكذلك جاءت آيات أخرى مثل ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

وهناك أحاديث عديدة تصف الحالة البدنية والنفسية للنبي عندما كان يأتيه الوحي. وهناك أحاديث أخرى تنص على أن جبريل كان يتقمص شخصية "دحية الكلبي" وكأنما أريد بمثل هذه الأحاديث أن تدحض شبهة عدم إعجاز أو قدسية أو صفة تنزيل الوحي المحمدي.

والإيمان بالوحي جزء من الإيمان بذلك العالم المجهول للعالم الذي يطلق عليه القرآن عالم الغيب، ولا تفضل معرفتنا به معرفة أحد أجدادنا الغابرين بالراديو أو اللاسلكي.

وأسلوب القرآن في الإشارة إلى الأنبياء هو ذكر صفاتهم أكثر من أسمائهم. فلا يذكر القرآن أسم النبي إلا عندما يتطلب السياق التمييز بينهم، أو أن يكون الحديث متعلقاً بأمر خاص برسول بعينه، أما في غير ذلك فالإشارة دائماً بصفة (رسول الله - رسله - أنبيائه) ولم يذكر سيدنا محمد باسمه في القرآن إلا خمس مرات على تعدد الإشارات إليه، كما تلازم دائماً أدوات الحصر صفة النبي فتحصرها في تبليغ الرسالة "إن أنت إلا نذير".

وهذه الإشارات كلها تدل دلالة قاطعة على الصفة الموضوعية للرسول، وأنه ليس البطل صانع التاريخ، ولكنه الموصل للإرادة الإلهية، وليس له دور إلا التبليغ، وما يلحق بهذا التبليغ من إيضاح أو تفسير. وهذه الصفة بدورها لم تأت بسبب ربانية الرسالة فحسب، ولكن أيضاً لأن الوسيلة هي (الوحي) فالأنبياء لا يبدعون رسالتهم، ولا يضعونها من تلقاء أنفسهم أو طبقاً لفلسفتهم، بل ولا يعلمونها قبل أن توحي إليهم. ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾..

ومن الواضح أن هذا يقدم تفسيراً لمهمة (البطل)، فليس هو الذي يبدع التاريخ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب مدرسة البطولة والفرد، وليس هو الذي يستبطن العلاقات الإنتاجية كما تذهب إلى ذلك الماركسية.

والقرآن ينص على أن الله (يصفى) أفراداً ليبلغون رسالته. وهؤلاء الأفراد، وهم الأنبياء، يكون دورهم التاريخي هو التبليغ بكل ما في هذه المهمة من أمانة، ودقة، وإيضاح أو تفسير وما يتطلبه ذلك من عمل وذكاء وتضحية. وهذا هو دور النبي، أما محور التاريخ فهو مشيئة الله. وهو التعبير الإسلامي للتطور طبقاً للسنن التي وضعها الله، والتي تضع في اعتبارها كل العوامل المؤثرة.

ويفترض الإسلام في الأنبياء أن يكونوا مثلاً علياً حياً يُهتدى بأخلاقها وسلوكها، وهو ما يتسق مع بقية جوانب (النبي) لأنه لما كان الله يصطفيه ويكل إليه مهمة تبليغ رسالاته، فلا بد وأن يكون أكمل الناس.

والنظرة العابرة في هذه المهمة المزدوجة توضح جلياً الفرق الأساسي ما بين النبي والبطل، فالأنبياء أفراد اختارهم الله عز وجل من صفوة الخلق ليحملوا رسالة مقدسة إلى البشرية وأضفى عليهم عصمته في تبليغهم الرسالة، في حين يحمل الأبطال أوزار الأوضاع والوراثة والبيئة، ومن هنا فقد تكون مذهبهم واتجاهاتهم سليمة، ولكن سلوكهم وتصرفاتهم تعكس الضعف البشري..

**وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمداً رسول موحى إليه من الله، فنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة.**

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية، أمام مآثر محمد.. لبدت الأولى ضئيلة، فميئة معيبة أمام الثانية..

فقد كان محمد نبياً جاء بدين ناجح وسياسياً بنى دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة، ومشروعاً وضع قانوناً عبقرياً يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وبلغاً جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجة في اللغة. وقائداً عسكرياً مظفراً. ومثلاً أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حتى الآن يتردد خمس مرات كل يوم في أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يزال مثواه الأخير علماً منوراً يهرع إليه المؤمنون من أقطار الإسلام يحذوهم الشوق لكي يقفوا بين يديه في تلك البقعة التي قال عنها إنها "روضة من رياض الجنة".

من ذا يسامى هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة..

لقد كان الاسكندر فاتحاً عسكرياً مظفراً، وتتلذذ على يد "أعجوبة البشرية" أرسطو، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكن النبي، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطته في منكرات وآثام.

وكان "أعجوبة البشرية" ارسطو فريداً في الفلسفة والمنطق والآداب والعلوم، ولكنه لم يكن رجل الدولة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكري.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وآداب وقائداً منتصراً ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة.. وامرأة كل رجل..

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً، ومشروعاً ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والآداب أو المثل الأعلى في الأخلاق.

وكان كل من "شكسبير" و"جوته" علماً من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهما كانا أصفاراً في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة غير العادية للرسول العربي قد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها " .. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ..".

فهل كان يمكن للإسكندر، أرقى ثمرة للثقافة الهلينية وتلميذ أرسطو أن يقول شيء كهذا..

أي قائد، أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قال محمد عن أصحابه: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم .. اهتديتم" ..

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة؟ إن مجد محمد الذي انعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقبل لهم "التابعون" وإلى أصحاب هؤلاء فقبل "تابعو التابعين" ..

أي جنود معركة نالوا مثل "الوسام" الذي منحه محمد لجند بدر " .. إنه شهد بدماء، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم" ..

أي بشر يصل به الاعتزاز وتملك قياد البلاغة وقوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه "لو كتم في أهلكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة!! "

**وكل هذا...**

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فيلسوف ..

فإذا لم يكن هذا وحياً، وإذا لم يكن محمد نبياً، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يري اليونان والرومان – إلهاً، أو نصف إله.

وقد قرأنا فقرة تتفح صدقاً وإخلاصاً أملاها إيمان كاتب مسلم هندي هو السيد أبي الحسن علي الندوي وجعل لها عنواناً، محمد رسول الله روح العالم العربي قال فيها:

" .. إن سيدنا رسول الله ﷺ هو الذي أبرز العالم العربي للوجود، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة.

كانت سوريا مستعمرة رومية، والعراق مطية لشهوات الدولة الكيانية، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقية حلوباً ركوباً.

فما لبث هذا العالم المفكك المنحل المضطهد إن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام. ورسول الأمن والسلام ورائد العلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة، هنالك كانت الشام وكان العراق وكانت مصر وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه، فلولا محمد ﷺ ولولا رسالته، ولولا ملته، لما كانت سوريا. ولما كان العراق. ولا كانت مصر. ولا كان العالم العربي. فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام فليرد على محمد بن عبد الله نعمته، ويرجع إلى جاهليته الأولى. حيث

الحكم الروماني والإيراني.. وحيث الاستعباد والاستبداد.. فإن هذا التاريخ المجيد. وهذه الحضارة الزاهية.. وهذه الدول العربية ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.<sup>(٢٥)</sup>

## ج - الإيمان باليوم الآخر..

والعقيدة الإسلامية تتضمن كذلك الإيمان باليوم الآخر.

واليوم الآخر هنا رمز لفصيلة من الحقائق يطلق عليها في الإسلام السمعيات أو "عالم الغيب" وتضم فيما تضمه الوحي وكما ذكرنا. فإن الإيمان بالله والوحي يمكن أن يدخل في باب الإيمان بالغيب، وما دمنا قد سلمنا بأسلوب الاعتقاد إلى جانب أسلوب الحواس أو النظر العقلي فإن الإيمان باليوم الآخر لا يعد شذوذاً، وإن كان الإيمان به قد يكون أقسى وأصعب من الإيمان بالله

ذلك لأن اليوم الآخر يتضمن الحياة بعد الموت والنشور من القبور.. وهو أمر يصعب على الذي يحكم حواسه أو النظر العقلي المزعوم التسليم به.

وحجة القرآن في إثبات البعث هو أن الله هو الذي أنشأ النشأة الأولى. وأنه من ثم قادر على أن يحيى الموتى، ويبعث العظام وهي رميم..

استدلال منطقي تاماً، ولكن المنطق هنا لا يجدي، ما لم يكن إلى جانبه الإيمان..

وقد يُهَوَّن من الاستحالة الظاهرة لعملية البعث عدة أمور:

**فأولاً:** نحن لا نعلم إلا القليل من أسرار الحياة والموت والبعث والنشور. ولو قال أحد لأجدادنا الغابرين إنه سيمكن رؤية صورة أحد الموتى يتحدث، ويعمل فيرى أداءه ويسمع صوته بعد موته بسنوات عديدة بل يمكن الاحتفاظ بهذه الرؤيا والسماع دائماً لنعتوه بالجنون. ومع هذا فنحن نستطيع أن نحفظ بشرط سينمائي لإحدى الشخصيات فنسمع صوته ونراه يقوم بحركاته وأعماله بعد وفاته بوقت طويل، وفي الوقت نفسه فنحن لا نعلم على وجه الدقة البعث والنشور وكيفية، وما في القرآن من إشارات متعددة هي إشارات عامة تعني وتركز على صلب الموضوع وجوهره وليس على كلفه أو تفاصيله. فهناك بعث بعد الموت وحساب دقيق ومكافأة للمحسن وعقاب للمسيء أما تفاصيل ذلك فلم يتناولها القرآن جرياً على أسلوبه في إهمال التفاصيل والتركيز على الجوهر وقد تناولت أحاديث عديدة تفاصيل البعث والنشور، ولكن من المعروف أن هذا الموضوع هو المجال المحبب والمختار للوضاعين الآثمين، وللقصاصين الغافلين.

**وثانياً:** أن الفكرة في اليوم الآخر هي إحقاق الحق، فقد تسمح الأوضاع بظهور الطغاة والظلمة والفسقة الذين يرتكبون المظالم وينتهكون المحارم ويعذبون الناس ثم يموتون في أوج سلطانهم دون أن تتألم يد العدالة أو يدفعوا ثمن شرورهم، وقد يضطر ضحاياهم، إن جهلاً وإن قهراً، لتشييعهم في مواكب مهيبية ودفنهم في مقابر وهياكل يقف الحرس عليها ليل نهار.. فإذا جاز أن يمضي هذا لهدم كل معنى من معاني سيادة الحق. فالיום الآخر هو ميعاد هؤلاء مع العدالة الإلهية فسيادة الحق والعدالة تفرض إيجاد هذا اليوم كجزء لا يتجزأ من معنى، ومبنى الحق والعدالة، وانعدامه يفترض ضمناً تهديم هذا المعنى والمبنى أو انعدام وجودهما.

**وثالثاً:** إن عقيدة اليوم الآخر جزء حيوي وثمانين من الأصل الذي أوجد الضمير. فإيمان الناس بالله، وبأنه يكافئ المحسن ويعاقب المسيء في يوم لا يعطو فيه قوة السلاح و"القبلة الذرية" و لا يهيمن رأس المال والمعونات، ولا تملك وسائل الإعلام المضللة أن تمارس تزيفها... يولد الضمير.

وبوجود الضمير الإسلامي يوجد الالتزام الاجتماعي وتسيير أمور المجتمع سيراً هيناً ويسوده الفهم، والتعاون، والعدل، والمعايير الموضوعية التي يحترمها الجميع.

ويلحظ هنا أن الإيمان باليوم الآخر يقوم بمهمة وقائية وجزائية في آن واحد ويؤدي عمله في الحاضر المائل والمستقبل الآتي، فالإيمان به يقي المجتمع من أن ينساق أفراده في تيار الانحراف ويعصمهم من الزلل ثم يوجب توقيع الجزاء على المسيء.. في ذلك اليوم المشهود.. الذي يدفع فيه ثمن ما قدمت يداه...

\*\*\*

ويلحق باليوم الآخر. والحساب والعقاب.. الجنة والنار... ولا ريب في الجنة والنار، إذ هما أداتي الثواب والعقاب، وإليهما ينتهي المطاف والمآل..

وتثير الجنة والنار في أذهان بعض المسلمين العصريين قضيتين الأولى هل التعبيرات التي جاءت عن الجنة والنار في القرآن تعبيرات حرفية أو أنها مجازية؟ في نظرنا أن الأمر أساساً أمر فهم أمين، وقلب سليم وإخلاص في الاستدلال. فمن اطمئن صدره إلى أن هذه التعبيرات مجازية، شأنها في ذلك شأن تعبيرات "يد الله" و "العرش" وما إلى ذلك فله هذا المخرج والتأويل ما اطمئن قلبه إليه. ومن لم يطمئن إلى هذا فعليه أن يتمسك بما فهم من منطوق الآيات.

**والقضية الثانية** هي عدالة الجنة والنار، وبالذات العقاب بالنار. وفي هذا الصدد نعرض حقيقتين لا جدال فيهما: الأولى أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه هو الرحمن الرحيم، وأن الأديان إنما تنزلت والرسول إنما بعثوا رحمة بالناس، وأن رحمة الأم بطفلها جزء ضئيل (١%) من رحمة الله، وأن خزانة رحمة الله لا تنفذ وليس للذين أسرفوا على أنفسهم أن يقنطوا من رحمة الله. فلا احتمال بعد هذا لما نتصوره ظلماً.. تعالى الله عن ذلك.

**والثاني** أن إيمان المجتمع الإسلامي بعقوبة النار في الآخرة جعلها محرمة في الدنيا، فلم تعرف هذه العقوبة بين العقوبات لأي سبب كان. فوجوها في الآخرة كان رحمة في الدنيا. ونقيض هذا أن الكنيسة المسيحية لما كانت "تمقت الدماء" *ecclesia abhorreta sanguine* فإن العقوبة المقررة أصبحت هي الحريق وسبق المخالفون إلى المحرقة زمراً فيما سمي "مواكب الإيمان!". <sup>(٢٦)</sup> *auto da fe*

وهذه "المعلومة" الجديدة التي تكشف عن رحمة كبري تمخضت من عذاب غليظ ليست إلا مثالا واحداً لعشرات أو مئات "المفارقات" التي توضح خطأ الاستعلاء العلمي المزعوم، أو الأخذ بالظنة والبادرة الأولى، أو ما يبدو وكأنه منطقي معقول.

\*\*\*

وتحتل العقيدة منزلة الشرف بين مكونات الإسلام.. لأن الإيمان بالله تعالى: المثل الأعلى والحقيقة الكلية.. وخالق الحياة والموت ومالك الملك، ونور السموات والأرض يكسب الفرد المؤمن قوة عظمي، واعتزازاً لا يماثله أي اعتزاز آخر، و بهذه القوة تنمو شخصية الفرد المسلم وتصمد أمام كل المصاعب. والمحن والأعباء.

بل إن مجرد فكرة الله بالصورة الإسلامية. أي باعتباره مالك الملك.. ورازق الخلق مكن العلماء من أن يجابهوا الملوك.. وجعل العامل الفقير الجاهل يصيح عندما يرفض الدنيا "رزقي على الله!" ولو كان رزقه بيد الدولة الشمولية.. أو الإقطاعي المستحكم أو الرأسمالي المستغل لما استطاع إلا الرضوخ والاستسلام.

والعقيدة بطبيعتها فردية، والوسيلة الوحيدة إليها هي الدعوة. ومن أجل هذا كان الأنبياء دعاة يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يمكن تصور وسيلة أخرى غير ذلك، كأمر عسكري.. أو قانون أو إرهاب أو اصطناع.. فان هذا يوجد المنتفع أو الانتهازي أو الوصولي ولكنه لا يوجد المؤمن.

وشأن العقيدة في هذا العبادة والخلق، فكلها تنمو من الفرد.. لا تفرض على الفرد. والأمر هنا يختلف عن "الشرعية" التي تكون نقطة الانطلاق منها "المجتمع" ويجوز لها أن تلوذ بوازع السلطان وبالقوة الجبرية.



## الفصل الخامس

### والإسلام عبادة ...

#### والإسلام كذلك عبادة..

والعبادة هي أولى ثمار العقيدة وأكثرها مباشرة، ولهذا أصبحت وسيلة الحاسة الدينية لممارسة وظيفتها ووجودها وطريقة الإنسان للتقرب إلى الله، ومناجاته وتهذيب ضميره من النوازع الجامحة..

وليس المجال مجال دراسة موضوعية للعبادة، فهذا ما يتطلب كتاباً خاصاً، ولكن لابد من الإشارة إلى بعض القضايا الأساسية التي تلتبس بالعبادة عامة، والعبادة الإسلامية خاصة مثل قضية الإلزام والشكلية في العبادة وقضية القيمة التهذيبية لها

فمع أنه يفترض أن تتبع العبادة أصلاً من نفس الفرد كثمرة للعقيدة وتعبير عنها أو تجسيم لها، إلا أن الأديان جميعاً لم تترك العبادة للفرد تماماً.

فقد تدخلت عوامل عديدة اقتضت أن تحدد الأديان صور وطرق العبادة. حتى لا يضل البعض، أو يلوذ بصور سقيمة، أو يستسلم للسلبية. ولأن الأديان عقائد جماهيرية، كما هي إيمان فردي. وهذه الحقيقة تستلزم نوعاً من الوحدة، ومن الإلزام أيضاً، لأن تجربة البشرية أوضحت أن الناس أكسل من أن يلزموا أنفسهم القيام أو بمعنى أدق - المداومة على القيام - بأمور هي في صميم مصلحتهم، رغم علمهم بها ما لم تفرض عليهم هذه الأمور، أما إذا تركت للاختيار الفردي. فإنها لا تمارس، أو تنتظم ممارستها أو قد يغلب عليها أمور أخرى أكثر إغراء وأقل مصلحة. فكل الناس مثلاً تعلم أهمية غسل الأسنان قبل النوم الخ.. أو القيام بتمرينات رياضية معودة كل صباح.. أو الامتناع عن السرف في الطعام أو التدخين الخ.. ومع هذا فما لم تفرض هذه بإحدى طرق الإلزام، فإن عدداً محدوداً فحسب هو الذي يلتزم بها.

فلم تكن العبادات - كمارسات جماهيرية - لتظهر أو ليكفل لها الاستمرار إلا باختيار أفضل الصور المؤدية لها وفرضها. وهذه الضرورة الناشئة عن قصور الجماهير والجماعات وغلبة قانون الجهد الأقل عليها أونة والنوازغ المغرية أونة أخرى، يجب أن تكون ماثلة في أذهاننا عندما يطرأ لنا دائماً هذا السؤال "لماذا لا تترك العبادة للأفراد، وإحساسهم ومشاعرهم حتى لو أدى هذا لأن يعبد كل واحد الله بطريقته الخاصة". فلم يكن هناك بديل، وكان حتماً على الأديان أن تجابه التحدي في هذه القضية، وتحدد موقفها من تلك المشكلة التي يثيرها الاختلاف ما بين الفرد والجماعة، الشكل والمضمون، الإلزام والتطوع وأن تعين الأوضاع المحددة، والملزمة دون أن يستغرق ذلك مبادئ الفرد، أو جوهر الشعور وإنما هو ينظمها ويبلورها. ولو لم تعمل الأديان ذلك لفقدت صفتها الجماهيرية، ولأصبح مكانها ما بين الفلسفة والهواية، ولانحصرت في مجموعة ضئيلة جداً، إذا استطاعت مقاومة عوامل الفناء.

ومع أننا على استعداد للتسليم بأن الشكلية والإلزام يمكن أن يمسا أصالة العبادة التي يفترض أن تنبثق من أعماق الفرد إلا أن من الإنصاف أن نقول أولاً: إن هذا هو حكم الضرورات الاجتماعية التي بني عليها المجتمع الإنساني، ولم يكن هناك بديل. ثانياً: أن مقياس المساس المظنون بالأصالة هو على أقله بالنسبة

للجماهير العريضة التي لا ترى في هذا الفرض والشرع قيداً على مبادئها أو حرمتها، بل ترى فيهما عوناً لها وإراحة من عناء الإبداع والاختيار، والفلاسفة والمفكرون وحدهم هم الذين قد يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا الفرض والرسم، ولكن هؤلاء يفترض أن يلموا بقوانين المجتمع وطبائع الأشياء، وأن يكونوا أول من يعذر، بل وأول من يخضع ويلتزم، وهو الموقف الذي جعل عمر بن الخطاب يقول وهو يقبل الحجر الأسود "والله إني لأعلم أنك حجر. لا تنفع ولا تضر ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك" وهو أيضاً الموقف الذي جعل الصوفيين الثقات يلتزمون بأداب الشريعة ويؤدون شعائرها الظاهرة عن صدق وإخلاص وإيمان حتى لو كانت طريقتهم الخاصة تقوم على صلة روحية ووجد عاطفي، لأنهم يعلمون أن هذه الشعائر هي التي تمسكهم بالإسلام وتحفظهم من أن يضلوا في محيطات الجموح العاطفي. وعندما كانت تغلبهم عواطفهم فيما سمي "بالشطحات فإنهم كانوا يعتذرون عنها، ولا يأخذونها الأخذ الحرفي. ثالثاً: أن باب العبادة التلقائية الاختيارية الفردية غير مغلق فهو مفتوح لمن يشاء، إلى جانب العبادات المقدره.

وتفاوت التوفيق الذي عالجته به الأديان هذه القضية، ونحن نعلم بالطبع تلك الثورة العارمة التي ثارها المسيح على "الفريسيين" الذين جعلوا اليهودية طقوساً جامدة قاسية، وجعلوا من أنفسهم سدنتها الذين يحتكرونها ويفيدون من إعانتها للناس آونة ومن التحايل على هذا الإعانت آونة أخرى. ومع ذلك، ومع أن المسيحية اصطنعت المحبة شعاراً والقلب ملاذاً، فإن وجود الكنيسة والأكليروس والسلطات الواسعة التي منحتها نفسها أوجدت ما يشبه الوصاية على ممارسة العبادة.

وقد جمع الإسلام ما بين الإلزام والتحديد من ناحية، وإتاحة قدر كبير من الحرية والسعة من ناحية أخرى، وسنعرض لذلك فيما بعد، وقد يصورها أن القرآن - وهو الأصل الأصيل للإسلام - لا يضع إلا الخطوط العريضة الأساسية، ولا يتعرض أبداً للتفاصيل حتى في أهم النقاط مثل عدد مرات الصلاة في اليوم وعدد الركعات في كل صلاة الخ.. كما قد يصور الموقف التعبير القرآني "شعائر الله" فالعبادات في الإسلام "شعائر" تستمد من الشعور ولكنها تدور حول محور إلهي..

\*\*\*

ومما يمت إلى هذه القضية بصلة قضية القيمة التهديبية والنفعية للعبادة. فقد رأينا أن العبادة بعد وضع صور محددة لها وفرض درجات من الإلزام بها لم تعد فحسب تفرغاً لشحنة العاطفة الدينية التي تجيش بها النفس، أو تعبيراً عن الإيمان والولاء والمحبة والتفاني. وإنما أصبحت كذلك وسيلة تربوية لتنمية الضمير وتهذيب النفس والسمو بالأحاسيس. لأن الله غني عن العالمين وقد وضع العبادات لتهديب الناس وتركيتهم وتطهيرهم ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَتَّهِى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يبدو أن عنصر الشكلية من ناحية وضحالة فهم الناس من ناحية أخرى.. إلى جانب التيار الدافق لمادية العصر الذي يستغرق الفرد ويستترقه وقتاً وفكراً جعل القيمة التهديبية للعبادة محدودة. بل وأعطاه طابع "التشويؤ" أي فصل المضمون عن الشكل بحيث لا تفهم الحكمة من العبادة، أو يؤبه لها، وينصب الاهتمام على الشكل الذي يجمد ويتقوّل ويصبح غاية في ذاته، بدلاً من أن يكون وسيلة لغاية. وبذلك حصرت العبادة في دائرة ضيقة مغلقة لا تنتقل منها لتؤثر في بقية جنبات النفس أو مجالات المجتمع. وهذا "التشويؤ" يكاد يكون مرضاً متوطناً في العبادات ولا يمكن علاجه إلا بحسن فهم الإسلام ومعرفة روحه وحكمته، وجانب الشكلية هو على أقله في الإسلام. ويجب أن نضع في اعتبارنا أن العبادات بأسرها ليست

في ترتيبنا إلا جزءاً من مكونات الإسلام وأنه حتى لو لم تحقق الهدف التهذيبي بالكامل، فإن جزءاً من هذا الهدف المأمول سيتحقق، وللإسلام وسائله الأخرى النابعة من بقية المكونات التي سيرد الحديث عنها في الفقرات التي تلي فقرة "العبادة" ..

\*\*\*

والعبادات الإسلامية معروفة.. وليس من شأن هذا الكتاب الحديث عنها بالتفصيل، ولا المجال يتسع لذلك.

قصارى ما سنورده إشارات سريعة إلى بعض ما يعرض للنفس عنها..

والصلاة أولى العبادات الإسلامية وأهمها وتتضح أهميتها من الحث المتكرر والمتوالي عليها والأمر بها في القرآن والحديث.

والصلاة لغة الدعاء ولكنها اصطلاحاً تلك "الشعائر" التي تؤدي بطريقة معينة حدد خطوطها العريضة القرآن الكريم، وتولت تفاصيلها السنة النبوية، فعلية وقولية.

وهكذا نجد أنه حتى في الصلاة، أي الدعاء والصلة بالله والابتهاال إليه فإن ضرورة تحديد ذلك ورسمه قد فرضت نفسها.

فالصلوات المفروضة في اليوم خمسة. وقد بدأ هذا العدد قليلاً للأولين، وهو يبدو كثيراً للآخرين. والحق أنه وسط مع ميل للتحرز والتحوط وإشعار الفرد الخاص للصلاة، فلو كانت ثلاثة لماعت وسط التقسيم المبنتل لصباح، وعصر، ومساء، ولكن تحديدها بخمسة أصبح إضافة تنبيهيه أو إشعاريه، وكان يمكن لهذه الإضافة أن توجد وعياً خاصاً بالتوقيت والضبط لو أحسن المسلمون فهم صلاتهم.

ويمائل هذا الاتجاه في التحديد، الاتجاه في الأداء. فالصلاة الإسلامية تضم - فيما تضمه - قراءة القرآن، وركوع وسجود يتضمنها دعاء، وجلسة "تشهد" .. وهذه كلها مرسومة ومحددة، أريد بها إشعار الجسم والحواس والفكر الخشوع والإحساس بمعني الصلاة.

في مقابل هذا التحديد هناك بعد عن الشكلية، فالصلاة تجوز في الفلاة، وعلي الأرض، وفي قعر البيت، وبأي ملابس. وحتى وقتها فإنه على تحديده مفتوح حتى بداية وقت الصلاة التالية.. وفي الوقت الذي تقرأ فيه الفاتحة في كل الصلوات، فهناك حرية في قراءة أي نص قرآني بعدها، وبهذا تجمع الصلاة بين الإلزام والتحديد من ناحية والحرية والمبادأة من ناحية أخرى

ومن المسلم به أن معظم الناس يصلون صلاة آلية تهاجمهم فيها المشاغل والعواطف، وقد تكون بعض هذه الهواجس من أسوأ الشهوات التي يقذفها الشيطان في الذهن.

ومن المسلم به أيضاً أن هناك من يدع عمله ويصلي الظهر "حاضراً" حرصاً على وقته ثم يخرج من عمله قبل وقت العمل أو يعرف عنه أنه لا يضبط ميعاداً أبداً.. وأن هناك من يضيف على الصلاة المكتوبة سنناً، شفعاً ووتراً، ثم يبخس الناس أشياءهم، ويضيع عليهم وقتهم. مما ينم على أن هؤلاء لم يفهموا الحكمة في الصلاة.. وأن الصلاة بالنسبة لهم أخذت طابع "التشيؤ" المصمت.

وقد يكون من الخير لهؤلاء أن يقتصروا على الصلاة المفروضة ولا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يؤدوا أعمالهم خاصة إذا كانت تتعلق بخدمة الناس ويرجئوا الصلاة إلى آخر الوقت أو أن يفيدوا من مبدأ الضرورة، أو حتى من الرخصة التي أجازها النبي ﷺ حتى لا يخرج أحد من أمته على حد قول ابن عباس، وأعني بها الجمع بين الصلاتين في وقت واحد.

وقد جاءت هذه الرخصة رواية عن ابن عباس في مسند الإمام أحمد ومسلم والبخاري، وتأولها الفقهاء على أنها "الجمع الصوري" أي أن يصلي صلاة في آخر وقتها، والثانية في أول وقتها ولكن سياق الحديث لا يسمح بهذا. ورأى أحد الفقهاء أن "الفقهاء جميعاً على ترك العمل بهذا، إما لأنه منسوخ أو لأنه فعله في حال ضرورة إما لمطر أو شغل<sup>(٢٧)</sup>.

وقد قرأنا مقالاً قيماً عن هذا الموضوع لإمام من أئمة الشيعة في مجلة "رسالة الإسلام" لم يكتف فيه بتعزيز دليل الجمع من واقع الحديث، بل أراد الاستدلال عليه بالقرآن أيضاً فقال "والدليل على جواز الجمع مطلقاً موجود والحمد لله سنة صحيحة صريحة كما سمعت، بل كتاباً محكماً مبيناً، ألا تصغون لأنلو عليكم من محكماته ما يتجلى به أن أوقات الصلوات المفروضة ثلاثة فقط، وقت لفريضتي الظهر والعصر مشتركاً بينهما، ووقت لفريضتي المغرب والعشاء على الاشتراك بينهما أيضاً وثالث لفريضة الصبح خاصة، فاستمعوا له وأنصتوا ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾<sup>(٢٨)</sup>.

ومع إننا نوافق فضيلة الكاتب على ما جاء في مقاله إثباتاً للأحاديث ومعظمها عن ابن عباس، إن كان أحدهما جاء مسنداً إلى معاذ بن جبل والآخر مأثوراً عن عبد الله بن عمر، وأننا أيضاً نوافق على أن الورع الذي حمل العلماء على عدم الاعتداد بهذه الأحاديث لكي لا يجروا العامة على الجمع، أدي بكثير من أهل الأشغال إلى ترك الصلاة كما شاهدناه عياناً بخلاف الجمع فإنه أقرب إلى المحافظة على أدائها وبهذا يكون الأحوط للفقهاء أن يفتوا العامة بالجمع.. وأن "يبسروا ولا يعسروا"، نقول مع أننا نوافق على كل هذا، فإن شيئاً يحوك في الصدر من الاستهلال بهذا الأمر.. والمفروض عندما يسمح به أن يكون ذلك على أساس دفع الحرج، وليس القاعدة..

أما استدلال فضيلة الكاتب بالآية وفهمه لها فهو أمر خطير، ونعتقد أنه حمل الآية أكثر مما تحتمل لأن النص على أوقات معينة لا يعني ضرورة الحصر في الأوقات، فضلاً عما هو معروف من أن السنة مفصلة القرآن.

وكذلك قرأنا دفاع الفقهاء عن تأويل هذه الأحاديث بما يتفق مع ما ذهب إليه الجمهور من عدم جواز الجمع بغير عذر فوجدنا فيه تكلفاً كبيراً.

وما تظمن إليه النفس أنه رخصة ألهمها الله تعالى نبيه لما سبق في علمه من ازدياد المشاغل وتحكم الأعمال في الناس.

٢٧. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٦١

٢٨. رسالة الإسلام السنة السابعة العدد الثاني رمضان ١٣٧٤ إبريل ١٩٥٥ "الجمع بين الصلاتين" لحضرة صاحب السماحة للعلامة السيد شرف الدين الموسيري - لبنان ص ١٤٨.

ومع هذا فلا ريب في جدوى الصلاة حتى للذين لا يصلون بالخشوع أو بالانتظام أو الحضور الذهني، أو للذين يصلون كنوع من الالتزام أو التقليد...

فالصلاة بالنسبة لهم حبل يربطهم بالإسلام، وفي بعض الحالات يكون هذا الحبل طويلاً بحيث يشرده صاحبه أو يضل، ولكن هذا كله محدود، ويمكن أن يعود. وتكون الصلاة هنا بمثابة طوق نجاة لا يفيد صاحبه في مجالات عديدة من مجالات الحياة والمجتمع، ولكنه يقيه أسوأ الاحتمالات: الغرق.

**وفي الوقت نفسه هناك مزايا أخرى عديدة تبعية ...**

فستلزمه الصلاة الركوع والسجود وإذا أداها الأداء السليم (فركوع النبي ﷺ مثلاً يفترض الاستواء المستقيم للظهر حتى لو سكب عليه ماء لما انسكب). فسيكتسب صحة وسيمارس رياضة

وستفرض عليه الصلاة أن يتوضأ، فيغسل يديه وقدميه، والله أعلم ما يكون عليه مستوى النظافة لو لم يفرض الإسلام الوضوء. فإذا أراد أن يفلت من تجديد الوضوء، فعليه أن يتحكم في حواسه فيكسب في جميع الحالات، إما النظافة وإما التحكم في الحواس.

وعندما يلزم أحد الناس نفسه الانتظام في الصلاة فسيقوي ذلك من إرادته.. وإذا فرط فسيشعر بوخز الضمير والتقصير ويدفعه هذا وذاك إلى التعويض والتفكير..

وستودي مقاومته للهواجس الشريرة والأفكار المثيرة التي تهاجمه خلال الصلاة، أو الشرود إلى التمرين على تركيز الذهن..

وأخيراً فستضطره الصلاة إلى حفظ بعض الآيات إلى جانب الفاتحة، وهي ثروة حقيقية وبركة...

وأغلب الظن أن يفتح الله عليه في النهاية فتتجلى له الصلاة على حقيقتها بكل جمالها وروائها وأسرارها...

**وبعد الصلاة تأتي الزكاة...**

وهكذا وضعها القرآن، وهكذا يكون علينا أن نضمها.

والزكاة لغة النماء والطهارة والبركة والمديح وقد استعمل القرآن اللفظة ومشتقاتها في كل هذه المعاني، ولكن الزكاة اصطلاحاً هي ذلك الفرض العيني أو المالي الذي يكون على كل ذي مال تقديمه لينفق في مصارف معينة.

وهذه التسمية - الزكاة - هامة لأنها توضح الفرق الأساسي بينها وبين "الضريبة" التي يمكن أن تفرضها الدولة. فالأولى: الزكاة، لها جانبها التعبدية. وأداؤها يطهر النفس، وهو يؤتى طواعية. بل ويصطحب بالسرور والراحة. فالمؤمن حقاً يخرج خيراً ماله للزكاة.

وفي بعض الحالات يشير القرآن للزكاة باعتبارها "صدقة" ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ ويوجد هذا لبساً للذي يعتقد أنها "حق معلوم" كما جاء في آيات أخرى. والحق أنه ليس هناك خلاف فهي حق معلوم بالنسبة للمحتاج إليها يكون على المؤمنين أو على الحكومة الإسلامية كفالته لها. وهي صدقة بالنسبة لدافعها. ومن ثم فإنها تجمع الحسنيين للطرفين..

وقد يعترض البعض على أساس أن أبا بكر حارب العرب لمنعهم الزكاة فلو كانت "صدقة" لما جاز حربهم عليها. والرد على هنا أن منع العرب للزكاة أخذ شكل الرفض الجماعي وطابع التمرد، وفي الوقت نفسه فإن كونها صدقة لا يقتضي ضرورة تضمن عنصر الحرية في دفعها. وليس في الأصل اللغوي لكلمة "صدقة" ما يوحي التبرع والتطوع على العكس إنها من مشتقات التصديق والاتباع فإذا لم يدفعها بهذا المعنى طوبى بها وعوقب عليها، ومع هذا فهناك مثل "تعلبه" المعروف الذي بخل بالزكاة ثم ندم وجاء بها إلى النبي ﷺ ولكن النبي ﷺ رفضها ثم جاء بها إلى أبي بكر الصديق فرفضها، وإلى عمر فرفضها وإلى عثمان فرفضها حتى مات في خلافة عثمان ويقول المفسرون إنه هو الذي نزلت فيه الآية الرهيبة ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ \* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

ونحن نميل لأن نعتبر الزكاة عبادة وشريعة معاً. بمعنى أن لها جانبها العبادي الإيماني، وجانبها الاجتماعي الإلزامي..

وهناك فرق أساسي آخر بين الزكاة وبين الضرائب الأخرى قلما ينتبه إليه الكتاب. ذلك أن الزكاة مفروضة على "رأس المال" أما معظم الضرائب فإنها تكون على "الدخل".

ومصارف الزكاة توضح مدى اتساع وكرم دائرة التكامل الاقتصادي في الإسلام...

\*\*\*

والصيام من العبادات المأثورة في كل الأديان وإن اختلفت صورها وأوقاتها.

وقد اختار الإسلام أن يبدأ الصيام بالفجر وأن ينتهي بغروب الشمس، لأن الفجر والغروب أوضح الظواهر الجوية ويمكن أن يظهر لكل الناس في كل مكان.

كما اختار أيضاً شهراً متواصلاً، لأن المواصلة يمكن أن تعمق المعنى المطلوب..

وجعل الصيام الامتناع عن الشراب والطعام ليكون الإحساس بالصيام فعالاً، ولو أباح شرب الماء مثلاً لفقد الصيام فعاليته..عذابه وفرحته...

واشترط لكمال الصوم البعد عن الرفث والفسوق والسباب والامتناع عن الشهوات...

وهذه كلها هي أفضل الاختيارات. فإذا صام المسلم هذا الصيام فلا ريب في أن هذا تدريب صارم ودقيق للنفس وللجسم، وقد يتضمن مشقة وإعناتاً للكثيرين، ولكن الإسلام يريد للمؤمنين به أن تغلب عزائمهم شهواتهم وأن تخضع مقتضيات حياتهم اليومية لإرادتهم فلا تسترقهم أو تتحكم فيهم العادات..

ولكن الصائم إن امتنع عن الشراب أو الطعام.. ونال من الأعراض أو تورط في الشهوات.. أو قصر بحجة الصيام فليس له من صومه إلا الجوع والعطش.

ولو صام الصيام المشروع ثم عوض في الفطار ما فاته طول النهار بحيث يفوق ما يأكله في الإفطار ما يأكله في وجبات ثلاث أو وجبتين. فإنه يسء إلى حكمة الصيام، بل ويذهب بها ويجعل من شهر الصيام شهر الطعام!

وما يفعله المصريون في رمضان أكبر دليل على الجهالة المستحكمة التي تصل إلى قلب الأوضاع.

فمعظم الصائمين يعاقبون إخوانهم بهذا الصيام.. ويجنون على عملهم بحجته.

فإذا جاء الإفطار ملثوا البطون كل على مكانته وقدرته..

وقبل أن ينتهي الإفطار يبدأ زحف الإذاعة وهجوم التلفزيون بكل ما يتصور من نكات، وفوازير، وأحاجي، وأغانى، وأفلام وتمثليات.. ومجون أعد خاصة لهذا الشهر الكريم!

\*\*\*

ومن العبادات الإسلامية الحج، لمن استطاع إليه سبيلاً.

والحج عبادة يغلب عليها الطابع الجماعي والطقوسي، ومع ذلك فإن رؤية تلك الأماكن والبقاع الحافلة بالذكريات ومواقع الكفاح الأول.. وذكرى إبراهيم وإسماعيل.. وهما يرفعان القواعد من البيت. وتمثل هاجر – الأم الملتاعة تبحث عن الماء لأبنها العطشان حتى تجد "زمرم". واجتماع المسلمين كافة على عرفة يلبسون لباساً واحداً بسيطاً يحو الفوارق.. وزيارة الروضة النبوية والوقوف ببابها حيث ثوى الرسول العظيم وصاحبه رمز الصحبة والوفاء والاتباع.. وهذه الذكريات كلها تستغرق الشكليات التي تحفل بها مناسك الحج.

## الفصل السادس

### والإسلام خلق...

عندما تذكر الأديان يتراءى بحكم تداعي المعاني العقيدة والعبادة...

وهي ظاهرة لا تجوز على الإسلام إذا جازت على باقي، الديانات لأن من المقرر أن الإسلام بحكم نشأته وطبيعته، وما أراده الله له نهج في الحياة يظل مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويحدد للمؤمنين به المواقف التي يقفونها والخلائق التي يتخلقون بها في هذه المجالات كلها..

وقد تنبه بعض المفكرين المسلمين إلى هذه الحقيقة، ولكن تعبيرهم عنها لم يأت فيما نرى بالطريقة المثلى..

فقد أحسن بعض الغيورين الثقات عندما سکوا تعبير "الإسلام عقيدة وشريعة" حرصاً على الجانب التشريعي ودفعاً لما يتبادر إلى أذهان المحدثين من أن الإسلام صلاة وصوم...

ومع هذا فإن التعبير لم يكن كافياً، ولئن أحسن في ناحية فيخشى أن يفهم منه معنى الحصر، ويكون ذلك إخلالاً بأحد مكونات الكبرى للإسلام. وهو الخلق.

ولا يصلح عذراً أن يقال إن العقيدة تتضمن الخلق فلو أحسن الفرد الإيمان بها لحسن خلقه وصلح سلوكه لأنه إذا جاز هذا المنطق بالنسبة للخلق، فإنه يجوز أيضاً بالنسبة للشريعة، ولا يكون هناك مبرر لخصها بالنص.

وهناك بعد، نظر في صحة الاستدلال أو جوازه لما أوردناه في مقدمة هذا الباب من تعقيد وتركيب النفس الإنسانية وتعدد ملكاتها، وانفصال بعضها عن بعض.

ولعل هذا أحد الأسرار في أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يدمجا الخلق في العقيدة بحيث يمحى وجوده الخاص، وتحدث على كل منهما بما يؤكد ذاتيته، فذكر الأخلاق بأعيانها من كرم أو حلم أو حياء أو عدل أو إنفاق.. إلى جانب الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، فلو كان الإيمان وحده يكفي لما كان هناك مبرر للنص على الأخلاق، أو التعليل فيها أو توالي إردافها بعد الإيمان والصلاة، فقلما تذكر الصلاة إلا وتتلوها الزكاة وقلما يذكر الذين آمنوا إلا ويعقبها وعملوا الصالحات وهي ظاهرة فاشية في القرآن لدرجة تلفت النظر.

وعلى هذا فإذا أريد ذكر المكونات الأساسية للإسلام. فيجب النص على الخلق بين هذه المكونات، وأي أجزاء لإحدى المكونات عن الأخرى يكون خطأ. وأي استبعاد لواحدة يكون إخلالاً، ويذهب إذا جاز حساب الأرقام بثلاث أو ربع الإسلام.

ومعنى هذا أنه إذا آمن أحد الناس بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر وأدى العبادات كاملة، ولكنه مع كل هذا كان ظالماً، أو كاذباً أو منافقاً، فإن إسلامه لا يكون كاملاً، وكما أنه سيثاب على أدائه للعبادة، فإنه سيعاقب على سوء خلقه.



وقد رسم القرآن ما يمكن أن يكون لوحات وصفية لما يجب أن يكون عليه خلق المسلمين، وما يفترض أن يكون عليه مجتمعهم بحيث يلم الناس بالمضمون العام، كما أنه في حالات أخرى يخص بالذكر خلقاً معيناً أو يحض على سلوك بالذات.

### ومن اللوحات الوصفية مثلاً...

- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ \* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ \* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُمْسِكْ عَلَيْهِمْ ذَنْبَهُمْ فَيُضْرِبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيَّكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* وَعَلَّمُوا أَمْثَلُكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ \* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ \* وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾.
- ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ \* وَلَا تَصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

#### وهناك أحاديث عديدة تؤيد هذه المعاني وتفصلها مثل:

- "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يذلّه ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة". (البخاري، ومسلم وأبو داود)
- "الحياء من البر". (البخاري ومسلم)
- "البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس". (مسلم والترمذي)
- ".. وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة". (البخاري)
- "إن الله ليبلغ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة" (الطبراني في الأوسط)
- ".. والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل يا رسول الله لقد خاب وخسر من هذا؟ قال من لا يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه قال شره". (البخاري)
- "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم". (مسلم)
- "اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس يخلق حسن". (الترمذي)
- "الكلمة الطيبة صدقة". (البخاري ومسلم)
- "الإيمان بضع وستون - أو وسبعون - شعبة، أدناها إمطة الأذى من الطريق، وأرفعها لا إله إلا الله". (البخاري ومسلم وأبو داود)

- "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم". (مسلم)
  - .. أندرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دماء هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار". (مسلم والترمذي وغيرهما)
  - "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. (البخاري ومسلم)
  - "إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته".
  - "قال رجل يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال هي في النار قال يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها قال هي في الجنة". (احمد والبزار وابن حبان والحاكم في المستدرک)
  - "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له به كاذب". (أبو داود)
- فهذه الأحاديث، ومن قبلها الآيات صريحة في أن المسلمين مطالبون بخلق معين يثابون عليه، ومنهيون عن خلق معين يجازون عليه وأن هذا يعد من صميم الإيمان بحيث يعد الإخلال به إخلالاً بالإيمان نفسه.
- ونرى هذه الخلال في كثير من الحالات مقدمة في الآيات والأحاديث على العبادة الخالصة من صلاة أو صيام. وتعطينا هذه الخلال في مجموعها صورة للخلق الإسلامي الذي يقوم على استشعار الحاسة الإسلامية في السلوك والتصرفات، وتكون أركانه العدل والرفق والقصد في الأمور وأداء الأمانة والوفاء بالعهود والحقوق والتجاوب مع المؤمنين بتقديم النصح أو بذل العون أو التعاون على البر والتقوى والبعد عن الشح والأثرة والغلو والاستعلاء.
- ويلحق بهذا الخلق ما نسميه "الإتيكيت الإسلامي" أو قواعد التهذيب التي تنظم الحياة اليومية، وهي ناحية هامة من العجيب أنها أغفلت ولم ترزق حتى الآن التصنيف اللازم بحيث ترك الجيل المسلم ينشأ "شيطاني" دون أي توجيه في التهذيب. فقواعد التهذيب الأوروبية لا تتاسبه، فضلا عن أنها ليست في متناول يده دائماً، والقواعد التهذيبيّة الإسلاميّة منسية أو مجهولة، وكانت نتيجة ذلك هذا الخلط والفجاجة والفظاظة "والجليطة" في حين أن القرآن الكريم وكتب الحديث لم يتركاً حركة أو سكنه وتصرفاً صغيراً أو كبيراً حتى في أمس ما يكون بين الرجل وزوجته، إلا ووضعاً آداب وقواعد وطرقاً لذلك كله.
- والإتيكيت الإسلامي أعرق أنماط الإتيكيت، ثم هو مقدس بنزوله من السماء، مبارك بوضع النبي له.. فأى أتيكيت يمكن أن يسامى الإتيكيت الإسلامي، أو يكون له ما لهذا الإتيكيت من فخر وعراقة؟ إن الإتيكيت الأوروبي لا يعود في معظمه إلا إلى أكثر من مائة سنة، وإن عاد القليل منه إلي ما هو أبعد من ذلك، في حين أن الإتيكيت الإسلامي يعود إلى ألف وثلاثمائة عام.

خذ مثلاً لذلك آداب الاستئذان فقد نزلت فيها عدة آيات مفصلة من سورة النور، بعضها يتناول ما يمكن أن نسميه "الاستئذان بصفة عامة" والبعض الآخر يتناول أوقات "الاستئذان" وجاءت أحاديث... تكمل ما أجملته الآيات.

### والآيات هي:

- (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ \* لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ).

فأوضحت هذه الآيات أولاً: أن من الضروري الاستئذان والسلام قبل الدخول ثانياً: إذا لم يوجد أحد فيجب عدم الدخول. ثالثاً: إذا رفض الدخول فعلى المستأذن أن لا يجد غضاضة من ذلك، ويرجع فقد يكون هناك من الأسباب - التي لا يعلمها - ما يتطلب ذلك رابعاً: لا تسري هذه الأحكام على المحال العامة. وقد وضحت الأحاديث طريقة الاستئذان والسلام وهو أن يقول.. السلام عليكم أأدخل؟ "فإن سئل من؟ فلا يرد أنا.. ولكن يقول فلان".

### والآيات الأخرى (الخاصة بأوقات الاستئذان):

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا دَخَلُوا صَلاةَ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهيرةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلَاثُ عَوراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

وقد أوضحت هذه الآيات أن أطفال الأسرة وشبابها وخدمها أن يستأذِنوا في ثلاث أوقات معينة هي الصباح الباكر، والظهيرة، والليل، وهي أوقات خلع الملابس والنهوض من النوم أو الاستلقاء، وفي غير هذه الفترات لا يكون هناك حاجة للاستئذان لأنهم من أهل البيت أو الخدم ويغلب أن يكون الاستئذان لدخول حجرة النوم، أو المخادع.

وأوضحت الأحاديث الحكمة في هذا حتى لو كان المستأذن ابناً على أمه أو أختاً على أخته، بل أوضحت أحاديث أخرى أن من الخير أن لا يطرق الرجل أهله ليلاً إذا عاد من سفر.

ولما كان القرآن قد رأى في هذه الأوقات أوقات التبذل و"العورات"، فيفهم من هذا كراهة الزيارة فيها إلا لضرورة قاهرة

وتتضمن مسانيد الحديث كتباً كاملة عن كل باب من أبواب الأتيكيت مثل كتاب السلام، وكتاب المجالس، وكتاب الزينة، وكتاب اللباس وكتاب الوليمة الخ.. فضلاً عن أدق ما يكون بين الرجل وزوجته من آداب جنسية..

وقد جعل التطور صور بعض هذه الآداب متخلفة أو منقرضة "مثل الأكل بالأصابع" وليس علينا حرج في هذا، لأن المقصود بها التأدب، وليس التعبد، ولكن لا يزال لمعظمها سلامته وامتيازته الذي أكدته العصر. وإنه لمن أهم الواجبات أن تصنف هذه الآداب في فصول وأبواب بلغة سهلة وأن تدرس في المدارس حتى يلم النشء بآداب دينه، وقواعد السلوك والتهديب فيلزمها أو يكون لديه على الأقل معيار يكبح جماحه إن لم يستطع أن يطبقه.

## الفصل السابع

### والإسلام شريعة...

ظهر الإسلام في مجتمع قبلي لم توجد فيه قوانين مقررّة ولا شرائع مؤصلة فكان عليه أن يضع هذه القوانين والشرائع، ولا منافاة بين هذه الملابس الخاصة وأن الإسلام بطبيعته دين شامل، لأن الله تعالى يهيئ الأسباب لتحقيق النتائج، فقدّر أن يظهر هذا الدين وسط هذا المجتمع القبلي ليجد فرصته في التشريع والتقنين ولتظهر آثار وحكمة هذا التشريع.

وعندما تذكر الشريعة تذكر الحدود والقصاص ولكن الحقيقة أن الشريعة الإسلامية تشمل إلى جانب التشريع الجنائي التشريع المدني والتشريع الاقتصادي والنظام السياسي وتشريع الأحوال الشخصية، - كما يقولون - وإنما جاء التركيز على الحدود والقصاص لما خصت به من شهرة ولما يتمتع به دائماً القانون الجنائي من منزلة. وسنجرى على هذا السنن أى سنركز الإشارة على التشريع الجنائي مع إشارة مقتضبة إلى التشريعات الأخرى.

وتستلهم الشريعة الإسلامية أصولها وقواعدها من أصول وقواعد الإسلام. والإسلام دعوة موضوعية مبدئية، أي أن لها مبادئ موضوعية يجب أن يلتزم بها المجتمع، لأن في هذا الالتزام صلاحه، إذ لما كانت هذه المبادئ منزلة من الله، فإنها أفضل المبادئ وأصدقها موضوعية. ولكن لما كان هذا الاستدلال لا يجد تجاوباً مع الذين لا يؤمنون بالله، أو يرون فيها افتراضاً أو تلاعباً بالألفاظ، أو كانوا من الذين تشمئز قلوبهم لذكر الله على حد تعبير القرآن، فنحن نقول لهم كائناً ما كان إيمانهم، إن الفكرة الأساسية في الأديان هي وضع مبادئ لها من الأصالة، والصدق، والموضوعية ما يهدي الناس دون أن تتأثر باختلاف أجناس هؤلاء الناس أو أوقاتهم أو أماكنهم. والأديان في هذا تختلف عن الدعوات الديمقراطية التي تستهدف إرضاء أغلبية الناس أو الدعوات الفردية التي تزعم للفرد غائية يكون على المجتمع أن يكيف نفسه طبقاً لها

ولا يعني هذا أن الإسلام لا يتقبل فكرة المرونة أو التطور أو الذاتية أو تغير الأوضاع، إنه يقبلها، بل لقد ظهر من العلماء المتقدمين - ومن الحنابلة بالذات - من قدم المصلحة على النص وهو نجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٦هـ. وقد بنى رأيه في تفسيره لأحد الأحاديث أن الشارع استهدف المصلحة فالمصلحة هي الهدف، فإذا وجد نص يعارض المصلحة فيجب تقديم المصلحة "بطريق التخصيص والبيان لها لا بطريق الأفتيات عليها والتعطيل لها".

وعلى ما يبدو من سلامة وبساطة هذه المقولة فإنها حافلة بالثغرات، فأولاً، ليس صحيحاً أن المصلحة، بالمعنى المفهوم، هي الهدف الأساسي للأديان. لأن الفهم الإنساني للمصلحة يمتزج بمعنى النفع. وهناك فرق بين الرسالة الدينية التي تستهدف الهداية وبين مذهب المنفعة المعروف والذي يعد "بنثام" أبرز المدافعين عنه في العصر الحديث والذي يستهدف المصلحة فالمصلحة دائماً تتجرد من القيم والموضوعية، وليست مأساة التقدم الأوروبي سوى تجرده من القيم كما أشرنا، وثانياً أننا حتى لو سلمنا بأن المصلحة هي هدف الشارع، فليس من الأمور المسلم بها أن الناس سواء كانوا جماهير أو قيادات، يتوصلون دائماً إلى هذه المصلحة.. وتاريخ التقدم البشري يؤكد ذلك فقد حوربت كل خطأ التقدم، وكل الأفكار الرائدة، بل وحتى

المكتشفات والمخترعات التي لا يتصور أن تكون فائدتها محل شك! فتحديد المصلحة ليس من البساطة أو السهولة التي تبدو للوهلة الأولى. ولو سألنا مصلحة من؟ لما كان هناك رد صريح شامل فمصلحة العمال غير مصلحة الرأسماليين. ومصلحة المحكومين غير مصلحة الحاكمين الخ... وأغلب الظن أن تُضلل الجماهير المستغلة المحكومة بحيث لا تتعرف على المصلحة، أو تموه عليها بينما تستأثر القلة الحاكمة لتحقيق مزيد من "المصلحة" لها أو على الأقل تحافظ على الوضع القائم. وثالثاً أن المجتمع يحتاج إلى قدر من الثبات والحفاظ وأن يسير تقدمه بنسبه مترنة، الأمر الذي يتطلب معايير موضوعية وضوابط تحكم هذا التقدم، وكل ضوابط لا تكون موضوعية لا تصلح، وكل موضوعية لا تستلهم من الله لا تكون مطلقة أو ملزمة.

والملاحظ أن التقدم المترن يقاوم، في حين يسمح بنوع من التهور والاندفاع والنزوات. وآية ذلك أن التقدم المادي الكبير لم يصاحبه تقدم نفسي أو خلقي أو اجتماعي يماثله أو يقاربه. ورابعاً أن هناك ضرورة لتوفر صفتي القداسة والموضوعية لعدد من المبادئ الكلية العظمى التي يقوم عليها المجتمع، ولا يجوز أن تتزعزع لأنها بمثابة "البوصلة" التي تشير إبرتها إلى الاتجاه الواحد، وبفضل هذا الثبات والاتجاه الواحد تعرف بقية الاتجاهات... وتقاس خطا التقدم ومدى حقيقة المصلحة... وقد ناصرنا مقولة ابن الطوفي واستشهدنا بها في كتابنا "ديمقراطية جديدة" الذي صدر ١٩٤٦، وكنا في ميعة الشباب، وكان لدينا من الأوضاع وقتئذ ما يبرر ذلك، ولكننا الآن بعد مضي نصف قرن، نرى الأمر في ضوء مختلف. وهذه الواقعة في حد ذاتها، توضح زئبقية رؤية المصلحة واختلافها، وكيف أن العوامل تؤثر على الإنسان في تحريه المصلحة. وشأننا في هذا شأن المجتهدين الذين كانوا يختلفون فيما بينهم بل كان الواحد منهم يرى الرأي ثم يرجع عنه بعد مدة عندما يظهر له دليل جديد.

لهذا كله، فنحن نرى أن الإسلام لا يرفض فكرة المرونة والذاتية والمصلحة وتغيير الأوضاع ولكنه يضعها في التفاصيل. أما في المبادئ الأساسية أو الكليات فيفترض التزام الناس بها لان هذا الالتزام هو هداية البشرية، وهو ما يميز الأديان عن المذاهب والدعوات الأخرى، فالأديان تهدي الإنسان في حين أن الدعوات الأخرى حتى وان استهدفت علاج المشاكل، فأنها قد لا تهدي - ضرورة - الإنسان.

وبذلك يجمع الإسلام بين الثبات والوحدة والموضوعية في الكليات والمرونة والذاتية في التفاصيل.

\*\*\*

والطابع الأساسي للإسلام هو - كما ذكرنا "العدل" الذي يتجلي في كافة ما يقرره من أوضاع سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو حتى عبادية، وهو المبدأ الأساسي الذي استلهمته الشريعة الإسلامية، ويمكن نقصي آثاره عليها.

فالإسلام يفترض بادئ ذي بدء قيام مجتمع عادل يكف الفرد السوي عن الانحراف.. فإذا لم يوجد هذا المجتمع العادل، أو حاق به ما يؤثر على "عدالة" الأوضاع، فإن آثار ذلك تنعكس على العقوبة كما حدث في عدة حالات عارضة ارتقت إلى مستوي الإيقاف المؤقت لحد من الحدود المقدسة حتى ينتهي هذا العارض.

ولكن الإسلام - مع هذا - يتقبل فكرة أن يحدث الانحراف رغم سلامة الأوضاع، فليس هناك مبرر لكي نفترض أن سلامة الأوضاع الاجتماعية ستتأصل استئصالاً كاملاً للانحراف أو الجريمة، وان كان ذلك

سيجعلها محدودة جداً، لأن التعقيد النفسي والفردى يكون بمنأى عن الأوضاع الاجتماعية، فضلاً عن أن افتراض سلامة الأوضاع هو دائماً فرض نسبي. ومن أجل ذلك سيكون هناك انحراف أو جريمة حتى في أفضل المجتمعات. وعندما يحدث هذا فإن الإسلام يري فيه اعتداء على المجتمع، ويعني بحماية المجتمع أمام مزيد من الجرائم، وتحدد العقوبة على هذا الأساس، أى على أساس الردع..

وعندما لم يفهم الشاعر هذه النقطة تساءل.

### **يد بخمس مئىن فضة فديت ما بالها قطعت في ربع دينار**

فالسارق هنا لم يعاقب على سرقة دينار أو ربع دينار ولكنه عوقب على السرقة، ولانتهاكه حرمة مجتمع كفل له وسائل الرعاية، والجريمة هنا اجتماعية، والعقوبة أيضاً اجتماعية، ومن هنا كانت قسوتها وهذا هو ما توصل إليه تقريباً الشاعر الذي فهم حكمه الشرعية عندما رد على التساؤل السابق:

### **عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة، فافهم حكمة البارى**

وما نريد أن نصل إليه أن فكرة الردع الاجتماعى بما تتضمنه من قسوة لا تخرج في التحليل الأخير عن دائرة العدل الذي التزم به الإسلام ولكن المناط في تحديد العدل كان هنا المجتمع لا الفرد.. المعنى الذي يتضمنه الجرم. وليس الجرم في حد ذاته...

ويقسم الفقهاء العقوبات في الشريعة الإسلامى إلى ثلاثة أقسام: الأول الحدود والثانى القصاص والثالث التعزير. وسنقصر حديثنا على القسمين الأول والثانى لأنهما المستمدان رأساً من صريح القرآن والسنة. أما التعزير الذي يترك أمره عادة لولى الأمر ويتعرض لعدد كبير من الاجتهادات والخلافات فلن نعرض له، أولاً لأن المجال لا يتسع له وثانياً لأننا نعتقد انه، وهو محل الاجتهاد - تأثر إلى حد كبير بعوامل ذاتية حتى اصبح في بعض الحالات "أحكاماً سلطانية" أكثر مما هو تعزير إسلامى، وهذا أمر حاله يطول..

وقد عين القرآن الكريم والسنة الفعلية جرائم الحدود وهي السرقة، والزنا والقذف، وشرب الخمر، وقطع الطريق. ويضيف الفقهاء الردة والبغى ولنا فيهما وجه نظر سنعرضها عندما الإشارة إليهما.

ولما كانت السرقة هى أكثر ما يتعرض له المجتمع، وكان الأجراء عليها من أكبر دواعى الفساد في المجتمع سواء جاء من إشاعة القلق والخوف أو تيسير الكسب السهل الحرام فقد شدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة، غلقاً لبابها وحسماً لشأفتها وحماية المجتمع منها. وإبعاداً لمن يوسوس له الشيطان.. أو يداعبه الأجراء. وسنري أن العقوبة على قسوتها، وعلي أننا لا ننتقلها إلا على أساس الضرورة المؤلمة، هي بعد.. أفضل حل يكمن أن يتخذ إزاء هذه الجريمة..

ومع أن عقوبة الزنا اقسى واشد من عقوبة السرقة إلا أن طبيعة الجريمة واشترط أدلة تكاد تكون مستحيلة الإثبات، وهي رؤية أربعة أفراد لإتمام الفعل الجنسى بالكامل، فإن رأي الأربعة أن الفعل لم يصل إلى تمامه، فإن الحد يسقط، وإذا رأى ثلاثة الفعل الجنسى حتى نهايته ولم ير ذلك الرابع تماماً، بطلت الشهادة وعوقب الثلاثة بعقوبة القذف! نقول أن اشتراط هذه الأدلة كاد أن يجعل هذه العقوبة معطلة، إلا إذا أصر مقترفها على الاعتراف، وتمسك به رغبة في أن يكفر بدمه وان يظفر بمغفرة تتناسب مع هذه التضحية.. ولو قسمت على سبعين لكفتهم على حد تعبير الرسول، أو ليضمن بها الجنة في رواية أخرى.



أما القذف - والمقصود به القذف بالزنا - فعقوبته ثمانون جلدة ومن المهم هنا أن نوضح أن جلدة النبي تختلف عن جلدة الجيش البريطاني ذات "الثمانية ذبول" كما يقولون، ففي بعض الحالات لم تكن هناك "جلدة" إطلاقاً، ففي نيل الأوطار للشوكاني مثلاً جاء أن النبي جلد شارب الخمر بجريدتين نحو أربعين. فكلمة "جلد" هنا لا تختلف عن كلمة "ضرب".

ولم ينزل في شارب الخمر حد - ولكن عندما نزل النهي كان شارب الخمر يضرب "علقه" فالروايات مجمعة على أن شارب الخمر عندما كان يؤتي به إلى النبي كان يأمر بضربه حينما اتفق. وقيل إنه ضرب أربعين نعلاً، وجعلها عمر أربعين جلدة.. ثم ثمانين لما فسق الناس. وعلي هذا فتعيين العقوبة بأنها الجلد ثمانين أو أربعين لا يعد حداً كحد السرقة، أو الزنا، ويمكن النظر إليه في ضوء جديد.

والحد الخامس هو حد الحراية أو قطع الطريق والأصل فيه قوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ)، وقد اتفق الفقهاء على أن المراد بها قطع الطريق بالسلاح واختلّفوا في العقوبة لاختلافهم في فهم "أو" وهل هي للتخيير أو للجمع أو للترتيب على حسب الجنايات، كما اختلفوا في الصلب وهل يكون قبل القتل أو بعده. ورأينا الخاص أن "أو" للتخيير وليست للجمع أو الترتيب إذ لو أريد الجمع أو الترتيب لنص على ذلك بأداة الجمع التي لا تقبل تأويلاً، ولكن الحكمة هنا هي تقديم عدد من البدائل حسب اختلاف الحالات. كما أن المقصود بالصلب فيما نرى هو الردع، وإنه إنما يكون بعد القتل لا قبله ولأن فكرة القتل بهذه الطريقة لأنه نوع من المثله، ومن القتل صبراً، وهو منهي عنه (حتى بالنسبة للحيوان) وبعيد كل البعد عن منطق الإسلام، والصلب هنا كقول الآية (وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أسلوب من أساليب الردع..

ولآية الحراية استدراك هو قول الله تعالى.. (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقد جاء هذا الاستدراك بعد آية العقوبة مباشرة ومضافاً إليها وهو يسقط الحد عند التوبة قبل إلقاء القبض عليهم أو التمكن منهم.

ويضيف الفقهاء إلى هذه الحدود حداً يقضي بالموت على من يرتد عن الإسلام وحجتهم في ذلك الآية (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة ٢١٨ وحديث "من بدل دينه فاقتلوه" وحديث "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة"

أما الآية فليس فيها ما يومئ أقل إيماءة إلى عقوبة دنوية ولو أراد الله عقوبة لنص عليها. كما نص على حد السرقة والزنا أو القصاص.. ولا يجوز في دين الله أن يستحل القتل وإهدار الدم بمثل هذا الاستدلال السقيم، فضلاً عن أن هذا الاستدلال يخالف عشرات الآيات التي تنص على حرية العقيدة وحرية الإرادة مثل (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ) . (لا إكراه في الدين) . (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) . (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . (فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ \* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ).

وقد ذكر القرآن الارتداد في أكثر من آية، ولم يشر في آية واحدة إلى عقوبة، بل أحالها جميعاً إلى الله.. مثل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ) . (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) . (يا أيها الذين آمنوا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ \* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وتعرض القرآن لعقوبة الموت في أكثر من مناسبة فلم يوجبها إلا كنوع من القصاص أو عقوبة للزنا والقتل، ولو كانت الردة توجب هذه العقوبة لنص عليها جنباً إلى جنب قتل النفس والزنا بعد إحصان.

وكما أن القرآن الكريم لم ينص على عقوبة للردة فلم يرد في السنة الفعلية شيء من هذا. فلم يوقع النبي (عقوبة بالفعل على شخص ما لأنه ارتد، وعلي العكس لقد ارتد عبد الله بن سعد ابن أبي سرح وكان قد أسلم وكتب الوحي للنبي ثم فر إلى قريش وارتد وأخذ يندد بالنبي) ويحرض قريشا على المسلمين ويقول لهم أن دينكم خير من دينه فأهدر النبي دمه، فلما كان فتح مكة لاذ بعثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى اطمأن الناس وأحضره إلى النبي، وطلب له الأمان فصمت الرسول طويلاً ثم أمنه فأسلم. ولو كان هناك حد لما قبل النبي شفاعته. كما قدم إلى النبي رسولا مسيلمه الكذاب بكتابه الذي يقول فيه "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك أما بعد فإنني أشركت في الأمر معك وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون"، فقال لهما النبي ما تقولان أنتما فقالا نقول كما قال فقال أما والله لو لا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما فلو كان هناك حد لما أعفتها صفتها لأنهما ليسا مجرد نقله، وإنما هما أيضاً مؤمنان بهذا الشرك<sup>(٢٩)</sup>.

ويشهد لهذا كله أن الإيمان يتعلق بالقلب والنية. وان أى إرغام لا يجدي. بل يفسد الضمائر، فالتدخل فيه بالإجبار لا يفيد، بل يخالف حكمة الإيمان.

أما الأحاديث التي جاءت بقتل المرتد فهي أحاديث آحاد، ونحن لا نعلم ملاساتها. وقد يراد بها الردة المسلحة والمناوئة. ولا سيما وان بوارها كانت قد بدت في آخر حياة النبي وهو ما ذهبت إليه ابن تيميه وفي الحديث إلى جانب التارك لدينه "المفارق الجماعة" وقد يفهم من حديث "من بدل دينه فاقتلوه" أي ردة على الإطلاق فلو أسلم مشرك أو مسيحي أو يهودي لوجب قتله! وهو أمر لا يستقيم ومع كل هذا فهناك من يري أن أحاديث الآحاد لا يعمل بها في العقائد. ولا يجوز لها أن تصادم الآيات المتكررة، وروح الإسلام.. وحكمة الإيمان، وحرية العقيدة...

ولهذا فنحن نجزم بوجود "حلقة مفقودة" تحول دون حجية الحديث. ولا نري عقوبة جنائية في مثل هذه الحالة، ومن يستغن عن الإسلام، فالإسلام غنى عنه.. ومن يرفض منة الإيمان فإنما يجني على نفسه، ويحرمها..

ويضيف الفقهاء كذلك حداً هو حد البغي. وبينونه على الآية الكريمة (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وليس هذا حداً بالمعنى الجنائي، وهو يصور أفضل تصوير ما يمكن أن يتبع في حالة القتال بين فئتين مسلمتين، وهي أصلح قاعدة يمكن أن يقوم عليها حلف إسلامي يحول دون الانشقاق والثورات بين الدول الإسلامية، ولو طبقت الآية لما حدثت الحرب في باكستان، ولما وجدت يمن جنوبية وأخرى شمالية، أو على الأقل لسادت بينهم جميعاً علاقات الأخوة الإسلامية.

٢٩. وهناك حالات عديدة أخرى ضمناها كتابنا "الإسلام وحرية الفكر" الصادر في ١٩٩٩. "إضافة خاصة بالطبعة الثالثة" ..

ويلحظ الإنسان عند قراءة ما جاء بهذه الموضوعات بالمراجع القديمة أو الحديثة على سواء أن العناية انصبحت على التفاصيل والفروع والقياس والاجتهاد والتأويل وغير ذلك من "عدة" الفقهاء. دون إعطاء المصادر الرئيسية الثلاثة حقها. وهي كتاب الله. والسنة الفعلية أو الثابتة. وروح الإسلام، وقد نسج معظم الكتاب المحدثين على هذا المنوال، لأن معظمهم من المحامين أو القضاة الذين تعودوا على التسليم للشروح وإن دورهم هو البحث عن نصوص الشراح والأخذ بها دون إبداء الرأي فيها فالزليعي لديهم مثل "دالوز" مثلاً، ما أن يرد نص منه حتى يبادروا بالاستشهاد به ونقل عبارته بنصها، وقد يغلب على بعضهم مسحة من القسوة أو الجمود أو التسليم أكثر من التحقيق.. ويمكن أن يقال بصفة عامة أن الذين كتبوا عن الشريعة الإسلامية من القضاة والمحامين "المدنيين" أكثر "تقليدية" واتباعاً من كبار الشيوخ والفقهاء الذين عالجوا الموضوع، والذين لا يأخذون قضية مسلمة أقوال الشراح والفقهاء.. وبين يدينا كتابان لأستاذين فاضلين محققين أولهما "كتاب التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي" للقاضي الشهيد عبد القادر عودة، والثاني كتاب "التعزير في الشريعة الإسلامية" للقاضي الدكتور عبد العزيز عامر، وقد جاء بأولهما مثلاً.. "ومن المتفق عليه بين الفقهاء أن لفظ أيديهما يدخل تحته اليد والرجل" ص ٦٥٢ ج ١، وكان يجب عليه أن يحقق هذا ويذكر رأيه. والمفروض أن لا تتسحب الكلمة إلا على معناها ومدلولها اللفظي ولا يجوز أن تمتد إلى غيرها، وخاصة إذا كان الأمر أمر عقوبات، وقد أورد المؤلف العبارة كأنها شيء بديهي مسلم به. وكان الأجدر به أن يحقق نقطة كقطع اليد اليسرى بدلاً من اليمنى مثلاً تيسيراً للمذنب مواصلة العمل، وخصوصاً وإن الأثر المادي والنفسي للقطع واحد في الحالتين تقريباً.

كما قال عند الحديث عن العفو "ليس للعفو أي اثر على الجرائم التي تجب فيها عقوبات الحدود. وليس للعفو أثر على هذه العقوبات سواء كان العفو من المجني عليه او من ولي الأمر. فالعقوبة في هذه الجرائم لازمة محتمة، ويعبر عنها الفقهاء بأنها حق الله تعالى لأن ما كان حقاً لله امتنع العفو فيه وإسقاطه" ونحن نفهم أن يكون غرض المؤلف حسم "المحسوبية" والتفرقة بين الناس بحيث يطبق الحكم على الفقراء ويستثنى منه الأغنياء، وهو أمر نقره عليه. ولكن إيراد الفقرة بهذه الطريقة لا يعطي هذا المعنى.

وكان يجب حسماً للظنون والشكوك أن يشير ضمن الفقرة نفسها إلى الملابس التي تحوط هذا التشدد والإطلاق مثل توفير البيئة الإسلامية التي تحقق العدل. ولعل مثل هذه البيئة لم تتوفر للمجتمع الإسلامي إلا في فترات قليلة جداً مثل عهد الخلفاء الراشدين، وبعض الولاء والأمراء المعدودين. وقد أوقف عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة، ولم يقطع أيدي غلمان حاطب رغم إقرارهم بالسرقة. وهناك روايات عن أن النبي أمر بإيقاف حد السرقة في دار الحرب أي عندما يغزو المسلمون وجاءت رواية عن عدم رجم زان رغم اعترافه لأن هذا الاعتراف جاء بعد اتهام آخر كاد أن يرجم، فأرتوى أن اعتراف الجاني الأصلي أنقذ حياة، فاستحق الإنقاذ.

أما تعبير حق الله، وحق العبد، فإن ما يقر في النفس هو عكس ما أراده الفقهاء! أي أن حق الله يحتمل الرحمة والعفو.. لأن الله غني عن العالمين. ولأنه الرحمن الرحيم. ولكن بعض الفقهاء. نصبوا أنفسهم حفظة على خزائن رحمة الله فحق عليهم قول الله تعالى (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) ويغلب أن يحمل تعبير حق الله الفقهاء وأولي الأمر على التمسك تعصباً، والتشدد تظاهراً ومن الخير أن يلتزموا تعبير النبي عندما غضب لوساطة أسامه وقال "أتحدثني في حد من حدود الله" وهناك فرق بين كلمة حد وكلمة حق. لأن الحدود متعينة ومحصورة، ولكن كلمة حق تحتل التأويل ويمكن

أن تتسحب على الكثير،. وقد ذهب الفقهاء بعد إلى أن مراعاة الصحة أوجب من الصيام لمن يضره الصيام، وإلي تفضيل سداد الدين على الحج لمن لا يوجد لديه إلا مبلغ لا يكفي إلا للدين وإلي إباحة قطع الصلاة إذا تعرض مال المصلي للتلف. وكل هذه الواجبات المؤخرة تدخل في باب ما يسمونه "حق الله".

وجاء في الكتاب الثاني "وهو كما ذكرنا- التعزير في الشريعة الإسلامي للقاضي الدكتور عبد العزيز عامر "عند إيراد حد الردة" .. وإني أرى في إمهال المرتد أياما ثلاثة مصلحة، إذ ربما راجع نفسه خلالها وعاد إلى الحق، واحتمال عودته إلى الحق ترجح عندي هذا الرأي ولا سيما وأنه سوف لا يفلت من العقاب بعدها إن لم يتب، فلا ضرر في الإمهال مع احتمال المصلحة" ص ١٨ فكيف جاز للقاضي الفاضل أن يسلم في هذا الأمر العظيم أمر الإعدام.. إعدام الحياة العضوية أو الحياة الأدبية لرأي فقهاء لا يستند إلى نص صريح من القرآن، وإنما إلى حديث مرجوح بفعل النبي نفسه وروح الإسلام..؟ أفلم تفرح آذانه الآية (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وكيف لم تتحرك في نفسه "الحاسة القضائية" التي تثور قبل إصدار كل حكم. وتدفع صاحبها لأن يراجع نفسه مرة وأخرى، وان يتلمس كل البدائل ويتحرى كل الظروف؟ ولعله كان يجد شبهة يدرأ بها هذا الحد المزعوم في كلام الشراح أنفسهم. إذ يبدو أن هناك فهماً مسبقاً لحالة الردة يجمع بينهما وبين المحاربة، ففي بداية المجتهد ونهاية المقتصد مثلاً نجد تعبيرات مثل "المرتد إذا ظفر به قبل أن يحارب". "و. أما إذا حارب المرتد" فهناك افتراض في الحاليين يجمع ما بين الردة والحرب.. سواء ظفر بالمرتد قبل حربيه أو بعدها، ومثل هذه الشبهة، على ضعفها، تصلح تكأة لصرف هذه العقوبة القاسية، إن لم يشأ المؤلف أن يجتهد وأن يكون له رأيه الخاص المبني على الآيات القرآنية وفعل النبي صلي الله عليه وسلم وروح الإسلام وطبائع الأمور.

**لا جرم أن هذه الكتابات وأمثالها، وما تتم عليه من تمسك بأقوال المتأخرين. وعدم معالجة الأمور من كافة الزوايا، هي التي أثارت الخوف من الشريعة الإسلامية في نفوس البعض، وهو ما يجعلنا نصر على ضرورة العودة بالأحكام إلى الأصول النقية المحكمة من القرآن والسنة الثابتة واستلهاج روح الإسلام والنظر إلى أحكام الأئمة السابقين باعتبارها وجهات نظر نأخذ منها وندع ظالماً هناك متسع وفسحة دون تعسف أو تكلف أو استكراه.**

وقد تصور البعض أن في العقوبات الإسلامية كالقطع والرجم "وحشية" ونحن - كما ذكرنا - نعترف بأن هذه العقوبات ليست من العقوبات المحببة التي يسر بها أي مشرع، ولم يسعد بها النبي ( نفسه. وقد روي المشاهدون لأول حالة قطع أن وجه الرسول تغير تغيراً شديداً... وفي رواية "كأنما ذر عليه الرماد" ولما قيل له يا رسول الله كأنك كرهت قطعه قال وما يمنعني لا تكونوا عوناً للشيطان على أسيكم. إنه ينبغي على الإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه، إن الله عز وجل عفو يحب العفو" وليعفوا وليصفحوا.. ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم<sup>(٣٠)</sup> ولكنها مع ذلك إحدى الضرورات البغيضة التي يفرضها شذوذ وانحراف بعض الأفراد، ولا يكون هناك مفر منها حرصاً على مصلحة المجتمع، وتطبيقها يحقق وقائياً وبالنسبة لكل المجتمع الاستقرار والصلاح، وأنها عند التحليل العقلي المتزن البعيد عن التأثر بالعواطف العابرة لا تعدو أن تكون ضرورة بغيضة، ولكنها لازمة، أو أنها - في المدى البعيد أرفف، وأكثر إنسانية من العقوبات الحديثة. أو هما معاً. ويجب أن نصارح أنفسنا بأن الأسلوب القاسي - مع ملاحظة الضمانات - أفضل من التميع والنفاق

٣٠. الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ص ٦٧ من الجزء ١٦.

والضعف الذي يكون في حد ذاته جناية على المجتمع والجاني نفسه لأنه سيؤدي إلى تضاعف الجرائم، وتعدد العقوبات.

### ومما تتميز به الشريعة الإسلامية:

**أولاً:** تطلبها وجود البيئة الإسلامية التي تعف عن الجريمة فلو ارتكبت الجريمة لأن البيئة تفتقر إلى العدالة أو الأوضاع السليمة لأثر ذلك على تطبيق الحدود. لأن تطبيق الحدود افتراض المجتمع الإسلامي وأوجد ضمانات عديدة - فإذا لم يتوفر هذا أو ذاك، انعكس ذلك على الحدود، كما حدث في الحالات التي أشرنا إليها من قبل (إيقاف عمر لحد السرقة في عام الرمادة، وإعفائه غلمان حاطب من القطع.. الخ..). بل لقد اعتبر بعض الفقهاء أن السرقة من بيت المال لا توجب القطع. لأن لكل المسلمين نصيباً فيه.

**ثانياً:** تشديدها في أدلة الإثبات تشديداً كبيراً وصياغتها بطريقة تحقق للمتهم أعظم قدر متصور من الضمانات، وليس أدل على ذلك من محاولة ثني المعترف عن الاعتراف في حالتي الزنا والسرقة، وتكرار الإقرار ودرء الحد بأي شبهة واستبعاد الإكراه بحيث يسقط أي اعتراف، بل العقوبة نفسها، نتيجة لذلك.

فأين من هذا القانون الروماني "الذي كان يتخذ التعذيب وسيلة مقررّة للحصول على الأدلة". كأن الأدلة التي يحصل عليها بالتعذيب يكون لها قيمة...

وتعتمد الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى على الإقرار الحر المتكرر، وقلما تلجأ إلى القرائن لاحتمال التباسها بعدد من العوامل.

**ثالثاً:** أن العقوبات في الشريعة الإسلامية شخصية، وأثرها يقع على شخص المذنب، وبذلك يكون إحساس المذنب بها مباشراً، ولا تتأثر بالعقوبة أسرته وعائلته التي يمكن أن تنتشر عند سجن عائلها. فهي قد تكون أقسى على المذنب، وهو الجاني، ولكنها أرحم بعائلته البريئة. وهكذا نرى أن القسوة في العقوبة صادفت محلها، وجعلت العقوبة بمنأى عن أبرياء.

**رابعاً:** أن العقوبة سريعة وناجزة لا تعطل المذنب نفسه ولا تقتضي من الدولة إقامة جهاز ممرّد للعقوبات في شكل مصلحة للسجون، تبتلع جهود عشرات الألوف من الضباط والحراس والموظفين. ويدفع الشعب تكلفتها.

**خامساً:** أن مبدأ القصاص يحقق العدل والردع معاً، العدل لأن المذنب لن يصيبه إلا مثل ما فعل دون زيادة أو نقصان، والردع لأنه عندما يعلم المذنب بذلك فسيكف، أو على الأقل سيهبط بأذاه إلى الحد الأدنى.

وقد حاولت الدراسات الحديثة أن تشوه صفحة القصاص ولكن الحقيقة أن العصر الحديث أبرز حكمة جديدة للقصاص، فقد فشلت مع دخول صور الحكم الشمولية (الشيوعية والنازية.. الخ) ظاهرة تعذيب المعتقلين، ولم تكن هذه الوصمة لتظهر لو علم هؤلاء الجلادون أن القصاص لهم بالمرصاد، كما لم تكن لتتكرر هذه الظاهرة لو فعل بهؤلاء الجلادين ما فعلوه بالناس، ولحسنت شأفتها..

**سادساً:** تأخذ الشريعة الإسلامية في حالات عديدة بمبادئ لا يأخذ بها القانون الوضعي مثل التوبة والقصد والعفو في حالة القصاص والتسوية بالحسنى قبل توصيل الأمر إلى السلطات. وتوصي بالتستر وتكره أن تشيع الفاحشة وتحرم التجسس على الناس.

سابعاً: أن العقوبة في الشريعة الإسلامية "مكفرة" ومطهرة فإذا وقعت بإقرار كانت تطهيراً له وتوبة، وإذا وقعت بغيره فإنها تعد أداء لدين وتكفيراً عن ذنب ولا تستتبع قط أثراً تبعية، في حين أن العقوبة في القانون الوضعي تصم المذنب إلى الأبد بوصمة الجريمة، وتطلق في أثره وحشاً رهيباً وشبهاً مخيفاً اسمه "العقوبات التكميلية أو التبعية" وهذه العقوبات تحرم على المذنب الاشتغال بالمهن والوظائف حتى وظيفة "كناس" وتسقط عنه الألقاب وتوجب المراقبة وتجعله منبوذاً وتلاحقه في كل مسالك الحياة، وتدمر مستقبله وهي في الحقيقة أسوأ من العقوبات الأصلية

ثامناً: لئن كانت عملية الجلد أو القطع مؤلمة أو قاسية، أو حتى مذلة. فإنها رغم هذا كله قد تكون أخف من عقوبة السجن التي هي البديل الوحيد تقريباً عنها، والتي أصبحت عقوبة لمعظم الجرائم والجنایات، ففي السجن إذلال مادي يتأتي من الإسكان في أقفاص حديدية كأنما المسجونون وحوش كاسرة، والحرمان من المطعم إلا ما يقيم الأود، وبعد أن يتفنن "المتعهدون" والموظفون في سرقة وبخسه بحيث يصبح هو وطعام الحيوان سواء، والحرمان من أي مشروب، وحتى وقت قريب كان "عقب السجارية" جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً، والنوم على الأرض أو "البرش" والتعرض للحشرات والهوماء وعدم توفر وسائل النظافة مما يعرض صحة المسجونين للخطر أو يصيبهم بشتى الأمراض.

وهناك أيضاً الفصل بين الأزواج والزوجات مدداً قد تطول وتحوج المسجونين إلى الاكتفاء الذاتي الجنسي وأن يصبح الشذوذ الجنسي أمراً مقررراً لا محيص عنه تقريباً وبعد كل هذا فإن هناك عقوبات على الإخلال بالضبط والربط في السجن وقد تصل إلى حد الجلد. وهذه هي "عقوبة العقوبة" أو "الشيء لزوم الشيء" كما يقولون.. وكان لهم عن هذا غنى.

وفي السجن إذلال أدبي ينشأ من تقييد الحرية، وإساءة المعاملة والتكبير بالأغلال الحديدية.

وأخيراً فهناك سوءة السجن الخالدة ألا وهي خلطة الأبرياء أو ضحايا الخطأ الأول بالعتاة من المجرمين والممرسين في الانحراف بحيث تصبح السجن مدارس إجرام.. وحلقات انحراف وهو أمر معروف ومسلم به..

قد يقال إن إصلاح السجن يمكن أن يقضي على السوءات، ولكن من الواضح أنه بقدر ما تصلح السوءات بقدر ما يقل الإحساس بمعنى العقوبة، وإذا ارتفع المستوى بالسجون إلى ما يماثل مستوى عامة الشعب، فإن السجن تصبح نوعاً آخر من البيوت أو الفنادق. وقد كان هذا أول حائل وقف في طريقنا عندما كونا "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم" وأذكر أنني عندما طالبت اللواء حسين كامل مدير عام السجن سنة ١٩٥٤ بوضع أسرة بدلاً من البرش قال الرجل "كيف أسوي بين المجرم والجندي؟" كما تساءل أحد كبار الكتاب - الأستاذ التابعي - عندما طالبنا بإحلال لقب "نزير" محل لقب مذنب عن الفرق بين نزير السجن ونزير الفندق..

دع عنك تخصيص جيش من الجنود والضباط والموظفين وإنفاق مبالغ ضخمة على الصيانة والإيواء وإشغال أماكن ومبانٍ كبيرة في هذا كله..

وعقوبة السجن بعد إهدار للزمن الثمين، كما هي تقييد للحرية، فلو فرضنا أن متوسط عدد المسجونين العموميين هو عشرين ألفاً، وأن متوسط سنوات العقوبة هو خمس سنوات لمثل ذلك مائة ألف سنة تضيع هدرًا من حياة هؤلاء المسجونين.

لهذا كله فإن عقوبة الجلد، أو القطع، أكثر رحمة، وأبقي على الكرامة في المدى البعيد من عقوبة السجن، فضلا عن انتفاء العيوب الأخرى الكبيرة التي تحفل بها عقوبة السجن.

**تاسعاً:** أن الشريعة الإسلامية أعطت القاضي سلطة كبيرة فيما هو دون الحدود بحيث يمكنه في هذه الحالات أن يلحظ شخصية الجاني وظروفه الخ.. وهي في هذا أفضل من العقوبات الوضعية المحددة التي لا يكون أمامها مجال لملاحظة الظروف الخاصة. والتشريع الإسلامي في هذا يجري على نقيض ما افترضه في الحدود التي تمثل عادة الكبائر أو أشد الجرائم إغراء، وبهذا تجمع الشريعة ما بين الحدود المقدرة التي لا تفرق بين الأشخاص، والتعزير المرن الذي يلحظ شخصية الجاني.

**عاشراً:** تأخذ الشريعة الإسلامية بمبدأ "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ" "فأتبع السيئة الحسنة تمحها" ففي جميع الجنايات - باستثناء الحدود - يمكن معاقبة المذنب بالصيام أو بعنق رقبة أو بإطعام كذا مسكينا، وهي عقوبات تشعر بغرم العقوبة، وتقيد المجتمع في الوقت نفسه، وكان يجب على المشرعين والفقهاء المسلمين أن يتوسعوا في تطبيق هذا المبدأ الجليل، وأن يفتحوا له أبواباً تتلاءم مع تطورات العصر خاصة بعد إغلاق أكبر أبوابه - وهو عتق الرقاب.

ولا يعرف القانون الوضعي في هذا الباب سوي الغرامة العقيمة والشغل "مصاريق" وشتان بين هذين وما أبدعه الإسلام.

**حادي عشر:** تضمنت الشريعة الإسلامية عدداً من المبادئ الثمينة تحسدها عليها أية شريعة أخرى ولما يصل إليها بعد التقدم في معظم المجتمعات بحيث تطبقها تماماً مثل (لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، (لا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)، (لا ضرر ولا ضرار) ومثل استبعاد كل صور التمايز أمام القضاء بما في ذلك رئيس الدولة فنازلاً، ومثل درا الحدود بالشبهات، ومثل إفساح المجال للعفو في حالات القصاص والحض عليه، ومثل تحريم التجسس والإيقاع بالناس، ومثل استبعاد الاستكراه في كل صورته، ومثل حق الملتزم في إملاء العقد بحيث تنحسم شافة "عقود الإذعان" التي تملئها الشركات والهيئات على العمال والمستهلكين، ومثل حق كل فرد في تحريك الدعوى العمومية تحقيقاً لمبدأ مسؤولية الدولة عند عدم التوصل إلى الجاني بحيث لا يضيع دم في الإسلام..

وهذه المبادئ كلها من مفاخر ودرر التشريع وتتكشف أمامها شمس الشرائع الأخرى..

\*\*\*

هذا كله عن التشريع الجنائي الذي يتعرض عادة لسوء الفهم، إن لم يكن للهجوم..

وأما تشريع الأحوال الشخصية، وما يتعلق بالزواج والطلاق، وشخصية المرأة الخ.. فسنشير إليه في الجزء التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً<sup>(٣١)</sup>.

أما التشريع المدني والاقتصادي فلا يتسع المجال ألا لإشارة مقتضبة جداً عن الزكاة وتحريم الربا. وهما تشريعان اقتصاديان متقابلان يوجب الأول التكامل ويحرم الثاني الاستغلال. ولا يتسع المجال لمناقشة حكمة تحريم الربا، وحسبنا أن نقول أن الفائدة "وهي الاسم العصري المقنع للربا" قد مكنت من توسيع المعاملات، وإقامة البنوك وتحقيق الثورة التجارية التي أدت بدورها إلى الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، وقيام ذلك البناء الاقتصادي والإنتاجي الممرد بخيره وشره، نعمائه للمستثمرين وضرائه على العمال والمستهلكين. وعندما كان الاقتصاد الرأسمالي في الأوج يكتسح العالم بقوة وعرامة، كان من العسير إصابة "كعب أخيل" فيه الذي هو في الوقت نفسه حجر الأساس له - أعني الائتمان والنظام المصرفي الذي يقوم على عمليات الإيداع والإقراض وفتح الحسابات و"خلق النقود" كما يقولون - وهي كلها تعتمد على الفائدة في الملاذ الأخير. ولكن القرن العشرين تضمن تجربتين هامتين. الأولى هيمنة الحكومات في الدول الاشتراكية على البنوك والائتمان وإداراته، وأوضح ذلك أن من الممكن قيام اقتصاد مخطط يستغني عن الفائدة، وأن الفائدة ليست إلا وثناً من الأوثان التي تعبد حيناً حتى تنكشف حقيقتها فتنبذ ويقذف بها على الكوم المتعال لحطام الآلهة المزيفة. والثانية الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة التي بدأت بتهايوي أحد البنوك النمساوية سنة ١٩٢٩ وانتهت بإغلاق بورصة نيويورك وبنوكها سنة ١٩٣٣ وأوضحت أن الاقتصاد الرأسمالي المصرفي يقوم على رمال، وأن قوانينه الطبيعية التي تعمل آلياً من عرض وطلب، ومنافسة الخ لا يمكن أن تترك لنفسها، وإلا أوقعت نفسها في مأزق، بل في مغرق<sup>(٣٢)</sup>.

وأوضحت هاتان التجربتان بجلاء أن الفائدة ليست بالضرورة التي يتصورها الاقتصاديون الكلاسيكيون، ومع هذا، فمن المسلم به أنه ما لم يكن هناك اعتقاد ديني يربأ بالناس عن الكسب السهل ويحول بينهم وبين الانسياق وراء وازع الربح فستوجد الفائدة بصورة أو بأخرى، فإن هذا هو ما أوجدها بعد أن حرمتها المسيحية طوال القرون الوسطى.

وبالنسبة للتشريع السياسي، فحسب الإسلام فخرأ أنه وضع مبدأ "الشورى" وأنه لم يمض به إلى الديمقراطية المبتذلة، أو يضيقه بحيث يحصره في حزب حاكم ولكن أراد له الوسط النافع والمفيد فهناك تقييد بأصول يلتزم بها الحاكم والشعب على السواء. وهناك حرية مطلقة في نقض كل التصرفات. وهذه النقطة الثانية تمثل مبدءاً ثانياً من مبادئ الإسلام السياسية وهو السماح بالمعارضة وتقبلها والعمل بها عندما تثبت صحتها.

---

٣١. كما قلنا في المقدمة، لم يصدر هذا الجزء الثاني، ولكن ظهر عدد من الكتب يعالج كل كتاب ناحية، ولعل آخرها "المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء" .. إضافة للطبعة الثالثة "المؤلف".

٣٢. لقد سقط الاقتصاد الاشتراكي القائم على التخطيط المركزي واستطاعت الرأسمالية أن تتغلب على أزماتها، وبذلك يكون المعول هو ما جاء في آخر الحديث أعلاه.. (إضافة خاصة بهذه الطبعة) المؤلف.



## الفصل الثامن

### والإسلام - أيضاً - تراث

مع أن العناصر الأربعة السابقة وهي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة تمثل لنا المكونات النوعية للإسلام إلا إن هناك عنصراً خامساً لا يمثل ناحية نوعية، ولكن العمق التاريخي والبعد الأفقي معاً أي مرور ألف وأربعمائة سنة على الإسلام، وامتداده بحيث يغطي نصف الكرة الأرضية..

وقد لا يضيف هذا المكون شيئاً إلى جوهريات وأساسيات الإسلام فهذه الأساسيات هي ما تقدمه المكونات الأربع كما أنزلت على الرسول حتى بدأت صفحة التراث وأخذت كل يوم تضيف جديداً سواء، جاء هذا الجديد نتيجة الاجتهاد أو الامتداد بحيث أصبح هذا المكون مورداً مفتوحاً يزداد مع كل يوم ومع كل انتشار جديد للإسلام، ويثري كل المجالات. وأصبح أشبه بالأغصان الوارفة لشجرة الإسلام التي يتفياً ظلها وينعم بها مسلم العصر الحديث، بل لقد وصل درجة كاد أن يستحوذ على الأساسيات ويحتويها بمثل ما تحتوي الشجرة البذور. وكأن الأساسيات هي تلك البذور التي وضعها محمد منذ ألف وأربعمائة عام في جزيرة العرب، فنقلتها الرياح إلى كل بقاع الإسلام حيث نمت وربت وأصبحت أشجاراً غليظة ذات جذور متغلغلة وأغصان وارفة وذابت وتحللت فيها البذور دون أن تكون هذه الأشجار - ضرورة - مطابقة كل المطابقة للبذور. لأن عملية النمو تتطلب إلى جانب البذور التربة الصالحة والمناخ الملائم والرعاية الخ.. وهذه كلها ما يختلف من مكان إلى مكان. وهذا ما يوضح لنا كيف أن هذا المكون أصبح له وجوده الذاتي وحكمه الخاصة حتى وإن لم يرق إلا على المكونات الأربع الماضية. وكيف أن التمييز ما بين البذور الأصلية التي جاء بها محمد ( والعوامل الأخرى التي أثرت على عملية النمو الطويلة.. إجراء له ما يبرره فليست كل الأجواء بالأجواء الملائمة.. كما أن هناك عوامل خارجية أو خاصة أثرت على نمو الأشجار.

**وهكذا نجد أن أبرز خصيصة للتراث هما:**

**أولاً:** أن التراث يكاد يمثل "جسم" الإسلام وجرمه وظله الوارف ومادته الغزيرة التي يمكن أن نأخذ فكرة عنها عندما نعلم أن عمر الأساسيات لا يزيد على ٢٣ سنة وهي مدة الرسالة المحمدية من البعثة حتى وفاة النبي في حين أن عمر التراث يقارب أربعة عشر قرناً كما أن المدة الأولى كانت محصورة في شخص النبي وما نزل عليه من وحي، في حين أن المدة الثانية كانت تغطي نصف الكرة الإسلامية من أسبانيا غرباً إلى الصين شرقاً.

**ثانياً:** أن التراث بحكم هذه المدة الطويلة والمساحات الواسعة والبيئات المختلفة التي نما فيها والنظم التي خضع لها الخ.. تضمن كثيراً من الكنوز الثمينة التي لا تعوض ولا تقدر بمال وكثيراً من الهراء.. والحشف البالي الذي لا يساوي شيئاً.

ويجب أن نعرف أن التراث ليس كما يفهمه البعض الأوراق الصفراء. التي تؤوى في مكاتب "الاسكوريال" أو "لايدن" أو حتى "الصناديقية"<sup>(٣٣)</sup>، ولكنه أيضاً قيم ومبادئ ونظم وحضارة..

٣٣. زقاق ضيق بحى الحسين بالقاهرة يكتظ بالمكاتب.

وليست المأساة في التراث هي وجود السيئ السقيم إلى جانب الحسن السليم، فإن هذا أمر تقتضيه طبائع الأشياء، ولكن المأساة في التراث هي أن النشء الإسلامي الحديث عزل عزلاً تاماً عن تراثه، وقطعت كل السبل التي تؤدي إليه.. أو تصله به. فالثقافة المدرسية الحديثة لم تستطع أن تتخلص من المنطلق الذي تنطلق منه.. والنهائية التي تنتهي إليها التي وضعها الاستعمار، أو الفهم الأوربي. فهي تشير إشارات سريعة مقتضبة إلى الحضارات القديمة. ثم تبدأ البداية الحقيقية من اليونان والرومان اللذين يمثلان من وجهه النظر الأوربية أصول الحضارة والفلسفة والقانون والنظم السياسية والإدارية ثم تعبر عنهما إلى القرون الوسطى "المظلمة" حتى عهد "الرينسانس" أو الإحياء أو النهضة التي بدأت في الجمهوريات الإيطالية ثم ظهور فكرة القومية، وبدأ الثورة التجارية وعهد الاكتشافات والفتوح الاستعمارية ثم الثورة الصناعية في بريطانيا والعصر الحديث. فإذا ذكرت الثورات فهناك الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية ثم الثورة البلشفية سنة ١٩١٧، ويطرز هذا التاريخ بأسماء قادة وزعماء وفلاسفة يكاد يكون تسعة أعشارهم بلا استثناء من الذين أسهموا بصورة ما في استنزاف الشرق أو القضاء على استقلاله أو تشويه صورته، صحيح أن مناهجنا أدرجت في "القرون الوسطى" فصلاً عن الإسلام وظهوره وتاريخ الدولة الأموية والعباسية، ولكن السياق العام والروح الأصلية للنهج لم تجعل لهذه الزيادة قيمة كبيرة.. والوضع أسوأ بالنسبة لطالب الجامعة، فهو يدرس على يدي أستاذ حديث أو قديم العهد بالثقافة الأوربية التي تشربها في إحدى جامعاتها، وهو يكلف بالرجوع إلى مراجع أجنبية، وهناك كليات تدرس موادها باللغة الإنجليزية.

وتكون النتيجة أن أستاذ الجامعة، وخريج الجامعة، وطالب الجامعة كلهم سواء في الجهل بالتراث. بل إنهم لا يكادون يتكلمون عربية سليمة..

وليس الأمر أمر مناهج مدرسية أو أكاديمية، ولكنه أمر ثقافة عامة تنتظم الفنون والآداب التي تكاد تكون مستوردة أو ممصرة تطغي عليها قلباً وقالباً الروح الغربية، قلباً لأن مثلها العليا والقضايا الأساسية التي تعالجها أقرب إلى المجتمع الغربي منها إلى المجتمع العربي، وقالباً لأن الصور التي تنقصبها بعيدة عن الذوق والطبع الإسلامي سواء في ذلك الشعر المنثور، أو موسيقى الجاز، أو صور القسوة والتعذيب والتحلل التي تطفح بها الروايات السينمائية الأمريكية أو المستوحاة من الأمريكية. ونتيجة لهذا كله لوث الذوق العربي وسرت الهجنة إلى الأساليب العربية، فلا يكاد الكاتب أو الشاعر يقيم لسانه أو يأمن الخطأ واللحن ولولا المراجعات والتصحيحات المتكررة التي تقوم بها دور الصحف والجرائد والنشر لرأي القراء الأعاجيب..

ونشأ عن هذا كله تيار جديد جارف عصف بكل ما هو قديم.. وطارده وألجأه إلى أضيق المسالك. إلى الحوارية والأزرقة والقرى، بينما انفرد هو بالشوارع الرئيسية والبيادين العامة.. حتى كادت الروح الأصلية أن لا تجد ملجأ.. أو ملاذاً إلا قلب الفلاحة الأمين حيث يقر تحت طبقة من الغشاوة المنفرة تمتزج فيها الخرافة بالحقيقية. وحتى هذا الملاذ الخير، أخذ يطارده أيضاً، وهاجمه الجديد في عقر داره، بل في عقر كوخه المتواضع، عن طريق الراديو الترانزيستور...

وأذاب هذا كله العرف التقليدي والآداب المتوارثة التي كانت تربط أفراد المجتمع وفئاته بعضهم ببعض، فتحللت الروابط والأوصار. فقيلاً كان الأغنياء يرون عليهم التزاماً أدبياً نحو الفقراء، وكان الصغار يوقرون الكبار، وكانت الزوجات يتقن في أزواجهن، ويستمعن لهم ويوقرن آباء وأمهات أزواجهن. وبهذا

الفهم أمكن التغلب على صعوبات الحياة وشظفها. وإنه لمن أهم الأمور أن نوضح أن العلم والمال ليسا وحدهما وسائل حل المشكلات أو توفير السعادة. فقد يتيسر العلم، كما قد يتيسر المال، ولكن هذا لا يحل المشكلات، على العكس لعلها أن تزيد وتتفاقم. وقد كان الإيمان بقيم مسلم بها ومجمع عليها والفهم المتبادل والثقة أقدر على حل المشكلات وتحقيق الوئام.

وبالطبع، فليس كل جديد ضار، فحتى أكثر المحافظين يعترفون "بالبدعة الحسنة" وبأنه "لابد للزمان أن يتنفس" ولكن المؤسف أننا لم نجعل المناط هو القيمة أو الفائدة، ولكن الجودة فحسب، كائناً ما كانت هذه الجودة، وحتى لو كانت تقليداً أعمى أو تزييفاً فجاً فقد نفضل كلمتي "الهمبرا" و"كايرو" على كلمتي "الحمراء" و"القاهرة" وهكذا نخرج من النقيض إلى النقيض.. من أن كل جديد بدعة.. إلى أن كل قديم لعنة...

\*\*\*

وقد ارتأى البعض أن إصلاح هذا الوضع يكون ببعث التراث ونفض الغبار عنه، وإخراجه إلى نور الحياة، ولكن الحقيقة أن هذه العملية ليست - كما تصوروا - عملية مادية أو أكاديمية، ولا هي بالتالي تتحقق بطبع بعض المراجع. إن التراث - كما ذكرنا - مبادئ وأوضاع وتقاليد وقيم، والمهم هو إحياء هذا كله في نفوس الشباب، وحملهم على الإقبال عليه والإيمان به<sup>(٣٤)</sup> وهنا نجد فضل الإسلام، فهو المعبر ما بين العصر الحديث.. والتراث القديم، وهو القاموس الذي يفسر مفردات هذا التراث، وما لم تنتقد جذوة الإسلام فإن عالم التراث كله سيصبح مظلماً.

وهذا لا يعني الأخذ بضرورة بكل ما تضمنه التراث لأن بعض التراث يسمو إلى القمة والذروة وبعضه الآخر في الحضيض. وسنضرب المثل بنظامين من التراث كان من الممكن أن نصل حاضرنا بهما.. هما "الحسبة" و الأوقاف الخيرية "فنحن نقرأ عن نظم التفتيش والمراقبة للأسواق والشئون البلدية والاجتماعية على أساس أنها نظم مستحدثة. في حين أن نظام الحسبة كان يحقق هذا كله على أفضل صورة وقد تحدث بن خلدون عن واجبات المحتسب فقال.

"... يبحث عن المنكرات ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها عند ضربهم للمتعلمين".

ومن هذا يتضح أن مهام المحتسب تضم شئوننا بلدية، وثقافية واجتماعية وصحية. وقد يتصور أن هذا الجمع قد يفسح مجالاً للفوضى أو يحول دون التخصص المطلوب. ولكن الحقيقة أن ذلك هو ما يحول دون تفتت المسؤولية، وتميع الاختصاصات وتعدد الراسات، وما يجره هذا كله من تعقيد وتسويق. وهذا الجمع هو ما اخذ به أخيراً في فكرة الحكم المحلي، وتجميع الخدمات في "المحافظة" وليس في هذه المهام كلها ما يتطلب تخصصاً لا يتوفر للشخص المتمرس وصاحب الخبرة والتجربة في الشئون العامة.

ونقطة الإبداع في هذا النظام صدوره "احتساباً" ومن هذه الصفة أخذ اسمه. ولكنه في الفترات الأخيرة فقد هذه الصفة وأصبح المحتسب موظفاً عمومياً. ويبدو أنه لم يكن مناص من ذلك، وإن أفقده لمسة

٣٤. أنظر الملاحظة في هامش ص إضافة للطبعة الثالثة - المؤلف.

الإبداع والمبادأة التي افترض الإسلام أن تصدر عن الضمير الاجتماعي للمسلم واستشعاره لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك سبيل للعودة إلى الخط الأساسي والفكرة الأصلية للإسلام، ذلك هو إيجاد وظيفة محتسب فخرية في كل "شياخة" أو جزء من شياخة توكل إلى أحد كبار الشخصيات في هذا الموقع ويكون من سرورات الناحية أو شيوخها أو موظفيها المحالين على المعاش، والمهم أن تتوفر فيه شروط "العدالة" الإسلامية.. وأن يظفر بتقدير واحترام أهالي ناحيته ويمنح اللقب الفخري "المحتسب" ويعطي سلطات معينة ومحددة ويسير في رفقته ممثل للسلطة التنفيذية ويمارس اختصاصاته بطريقة فورية وناجزة. ولا يخالجا ريب في أن هذا النظام سيد نقصاً بالغا. وأنه جدير بان يكون أفضل وأنفع من النظام البريطاني العريق - نظام قضاة الأمن، أو الصلح كما يطلق عليهم في بعض الحالات.

وجود المحتسب لا يقضي على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لان المحتسب يقوم بمهمة "اجتماعية" ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة التي أوجبها النبي على كل واحد من المؤمنين واجب فردي. ومن هنا انصببت مهمة المحتسب على المجالات الاجتماعية التي تخضع لهيمنة السلطة وتقوم بأحكامها وعقوباتها، وليس له دخل في شئون العبادة التي لا تؤدي بوازع السلطان.. ولكن بوازع القرآن، وقد حمت فطنه بن خلدون من أن يقع في وهم أن مما يدخل في سلطة المحتسب دفع الناس إلى الصلاة والعبادة وقمعهم عند الإهمال أو المخالفة. فإن هذا أدخل في باب النية والضمان والقلوب، ولا تجوز العبادة كرها.. ولا الصلاة جبراً.. ولا الصوم تظاهراً فإن هذا مما يدخل في دائرة لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يقوم به الفرد تطوعاً، ويجب أن يقوم به بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي الطريقة التي أمر بها القرآن.. ووجه الله تعالى أنبياءه للأخذ بها. واعتقد أن لو حطم أحد الغيورين مثلاً تمثالاً أو زجاجة خمر لزيد من الناس على أساس أنه منكر، وأنه استخدم يده في إزالته تطبيقاً للحديث المشهور "من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه، وهذا أضعف الإيمان" وحوكم أمام محكمة إسلامية لوجب أن يغرم الثمن ولحق عليه أن يدفعه لا من ناحية خطأ الفعل فحسب، ولكن لأنه لن تكون له قيمة إلا بالتضحية في سبيله. فلو علم أنه إن فعل ذلك فسيغرم، وفعله تضحية واحتساباً لكان هذا دليل صدق الإيمان ولأثيب على هذا في الآخرة. أما لو ترك لتجراً على التهجم آناً من مغبة عمله، ولما كان في ذلك فضل أو تضحية أو شجاعة، فضلاً عن إنه سيفسح الباب أمام اجتهادات خاطئة أضعاف الصائبة. ولا يعني هذا تعطيل الحديث. فهناك حالات يتوجب فيها استخدام اليد كما لو شاهد الإنسان لصاً يهجم بالقتل أو السرقة أو رجلاً ينتهك عرضاً أو أمثال ذلك. ففي مثل هذه الحالات لا بد من استخدام اليد، بل يصبح واجباً.

**والنظام الثاني** هو نظام الوقف الذي يماثل ما نسميه الخدمة والتأمينات الاجتماعية أو الضمان الاجتماعي وكان يعني بمجالات قد لا تقوم بها الدولة.. وتوسعت مجالات نشاط الأوقاف إلى درجة تصور أنفساح الضمير الاجتماعي لدي الواقفين، فقد روي البعض.. "وكان هناك وقف لإعارة الحلي وأدوات الزينة للعرائس في الأفراح حتى لا يضطر العامة من الفقراء إلى أنفاق أموالهم في شراء ما لا طاقة لهم به أو الشعور بالنقص نتيجة لعدم المقدرة على اقتناء ذلك، وكان هناك ملجأ وقف مخصص للنساء اللاتي وقع شجار بينهن وبين أزواجهن فيلجأن إليه حتى يزول ما بينهن وبين أزواجهن فتعود المياه إلى مجاريها.. وكان هناك بعض الأوقاف لختان الأولاد، ووقف آخر لتوزيع الأكل والحلوى في شهر رمضان".

وجاء في كتاب "اشتراكية الإسلام" للشيخ مصطفى السباعي ذكر لبعض الأوقاف التي تصور سمو العاطفة الإنسانية وقوة التكافل الاجتماعي الإسلامي نقتبس منها.

## ٢٦- أوقاف للطب النفسي:

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات ويكون عملها هوان يتحدثان بصوت خافت صامت يسمعه المريض بحيث يوهمانه انهما يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما يقول أحدهما للآخر "انى أرى فلانا احسن منه بالأمس" فيقول الآخر "وانى أرى إشراق وجهه وعينه أحسن مما كان يوم أمس. وهكذا" بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة ما يقولون. وقد حدثني عن هذا الوقف مدير أوقاف طرابلس في إحدى زيارتي لها.

وكان في مستشفى السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضى الذين تشد آلامهم ويرتفع صراخهم فينسون الألم ويأخذون في الضحك، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوي الأصوات الجميلة يرتلون الأناشيد في منتصف الليل من فوق مئذنة المسجد بالمستشفى ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الألم ويمنعهم من النوم. كما كانت فرقة للموسيقي وقصاص يقصون القصص الشعبي على المرضى.

## ٢٧- أوقاف للتزويج:

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز آبائهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز فيتقدم الفتى أو الفتاة إلى قيم الوقف يطلب المعونة تلك، فيعطيه ما هو بحاجة إليه.

## ٢٨- وقف الزبادي:

وهو خاص لإسعاف الأولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادي في الطريق إلى البيت، يذهب الصبي أو الخادم إلى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجاً مما كان يحمل فيعطيه عوضاً عنها ويعود إلى أهله وقد اتقى شر العقوبة، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف.

## ٢٩- نقطة الحليب:

كان مما أوقف صلاح الدين الأيوبي وقف لإمداد الأمهات بالحليب اللازم وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر. تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع فيأخذون لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

## ٣٠- وقف للحيوان:

وكان خاصاً بإيواء الحيوانات الأليفة في بيت وإطعامها كوقف القطط الذي كان إلى عهد قريب موجوداً في (سومشا روجه) بدمشق وكان فيه ما يزيد على أربعمئة قطة من الفارشات السمان.

## ٣١- تطبيب الحيوان:

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها، ومن ذلك وقف (الموج الأخضر) الذي يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حالياً - فقد كان وقفاً للخيل والحيوانات العاجزة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

هذه الأمثلة توضح لنا أن الإسلام قد غرس في أجدادنا وعياً إنسانياً وتكافلاً اجتماعياً يضم كل المجالات التي يمكن تصورهما، وشتان ما بين هذا الوعي.. والشعار الرأسمالي "كل لنفسه وليأخذ الشيطان الأخير!" ولست ادري ماذا فعلنا بالأوقاف. ومن المحتمل أن النظام قد استغل أو اسيء تطبيقه، ولكن كل

النظم عرضة للاستغلال. وكان من الممكن إصلاحها. ويبدو أننا جردناها من صفتها التطوعية وشخصيتها الخاصة وأدبناها في جهاز الدولة الضخم ببيروقراطيته وروتينه وتعقيده.

\*\*\*

### والتراث أيضا تاريخ..

وقد خدم التاريخ الإسلامي في الفترة الأخيرة بعض الشيء، واستهوي أقلام مجموعة من الكتاب الذين شادوا الإسلام فغلبهم الإسلام مثل حسين هيكل والعقاد ونفع الله بكتابتهم كائنة ما كانت النوايا التي في القلوب والتي مردها إلى الله..

وبهذه الطريقة تعرف الجيل على عبقرية عمر وخالد وأبي بكر، وهذا الرعيل الأول فضلاً عما صدر عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه..

ولكن التاريخ الإسلامي حفل في عمقه وامتداده بأسماء ووقائع، بل وظواهر لم يسمع المسلم الحديث بها.

فكم من طلبة الجامعة مثلاً يعلم شيئاً عن نور الدين الشهيد الذي أعد الوطن العربي لملاقاة الصليبيين، أو السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند.. أو الإمبراطور اورانجزيب.. أعظم أباطرة المغول وأكثرهم إسلاماً.. والإمبراطور الذي "عاش طول حياته متمسكاً بقواعد الدين الحنيف، محافظاً على سلامته، رحيماً بشعبه المسلم، لم يعن بفن حتى الموسيقى حرمها على نفسه وكان عازفاً بارعاً، أثر شظف العيش في المأكل والملبس، حفظ القرآن وجوده وقرأ الأحاديث النبوية وأوصى بأن يدفن تبعاً للسنة فلا يصرف على كفه سوى ما كسبه بيده من حياكة الطواقي، وأن لا يغطي نعشه بغير قطعة من قماش الشراع الخام. وترك للفقراء ثروته الخاصة: ثلاثمائة روبيه هي كل ما كسب من نسخ القرآن الكريم<sup>(٣٥)</sup>.

وهناك ظواهر تاريخية تكاد تكون مجهولة مثل الدور الذي قامت به بعض الطرق الصوفية كالسنوسية والتيجانية في نشر الثقافة والمعرفة وإداعة الإسلام وإقامة ممالك أفريقية زاهرة، كما لا يزال تاريخ الشمال الأفريقي مجهولاً أو شبه مجهول لبقية مسلمي العالم سواء في ذلك تاريخه القديم الحافل بالبطولة والحمية أو تاريخه الحديث الحافل بالمقاومة والكفاح..

ونتيجة لجهل النشأ الإسلامي بتاريخه، أصبح تائهاً، ضائعاً، فاقداً لجذوره، لا يحس أصالة ولا اعتزازاً ويعيش حالة على تاريخ غيره.. وانطبق عليه قول شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم      كلقيط عي في القوم انتساباً  
أو كمغلوب على ذاكرة      يشتكى من صلة الماضي انقضاباً

\*\*\*

٣٥. انظر مقالاً ممتازاً للكاتب المبدع للأستاذ حسين فوزي بجريدة الأهرام ١٩٧١/٢/٢٦.

## والتراث كذلك فنون..

وأكثر الفنون حفاظاً على التراث - هي العمارة.. فقد كان إنشاء المسجد عمل ديني، كما هو عمل اجتماعي وعمراني.. وكان البدء في تخطيط المدينة هو وضع مسجدها... ثم إقامة المباني والأحياء حوله.

من أجل هذا حفظت العمارة عبر القرون روح التراث الإسلامي، وأثارت هذه الظاهرة إعجاب الكثيرين فجاء في إحدى المقالات "ولقد دهش كاتب هذه السطور - الذي لم يولد في مصر، ولا كان عند مولده مسلماً - عندما وفد إلى هذه البلاد لأول مرة، فرأى المستوى الذى بلغه الفن الديني الحديث في مصر وكيف أنه أرفع مما وصل إليه في بريطانيا بل في أى بلد آخر في أوروبا. ويبدو أن ذلك راجع إلى أن الفنانين المسلمين اليوم يعملون وفقاً لتقاليد حيه توارثوها جيلاً بعد جيل بغير انقطاع على مدى قرون عدة. بينما في أوروبا نجد أن الطراز القواطي نظرية ميتة عفى عليها طراز النهضة الذي عفى عليه هو الآخر الطراز الحديث"<sup>(٣٦)</sup>.

فماذا يعرف النشأ المسلم عن مساجده؟ كم واحد تفقد جامع عمرو بن العاص؟ كم واحد زار ذلك المسجد الشامخ الممرد الذي يمثل جلال وعراقة وعرامة المعمار الإسلامي... مسجد السلطان حسن. هذا المسجد الذي اعتبره الكاتب الفنان الأستاذ حسين فوزي صنواً لمعبد سيدي الأول بأبيدوس (العراية المدفونة) في التمثيل لعمارة مصر..

هل هناك شيء يثير الأسى أكثر من أن تطلق عامة القاهرة أسم "مذبح الإنجليز" على مسجد السلطان العظيم ببيرس قاهر الصليبيين والتتار.

ماذا فعلنا بتلك المنطقة الرائعة التي تبدأ من باب زويلة لتنتهي بسيدنا الحسين.. والتي تضم في مدخلها منزل جمال الدين الذهبي في جانب.. ومسجد المؤيد في الجانب الآخر..

لقد جعلنا منها "سويقة" تزدهم بالباعة الجائلين من كل نوع، وتعلق الأحذية و"الشباشب" بالجدران التي رفعتها، بخالص التقوى. والإيمان.. والإتقان، أيدي البناء المسلم.

ما أكثر ما تحرك القلب وأنا أسير في بيت القاضي ونواحي الجمالية.. كل حجر يكاد ينطق بقصة، كل ناحية مشهد.. أو فصل من التاريخ..

لماذا لا نجعل هذه المنطقة - منطقة تاريخية. أو كما يقولون أثرية.. ولما كان لابد من استغلالها فليكن للعلم. فتصبح شيئاً كالمدينة الجامعية الأزهرية وتستغل مساجدها الرائعة ككليات فتكون هناك كلية "جامع المؤيد للشريعة أو لأصول الدين" والسلطان المؤيد يعد محدث روى الصحيح عن السراج البلقيني وسمع منه (أي من المؤيد) الحافظ بن حجر وأدرجه في "المعجم" المفهرس ضمن مشايخه. وليس في جعل المساجد كليات غرابه، فإن كليات أوكسفورد.. تحمل أسماء مثل كلية "جسد المسيح" أو كلية "الثالوث" أو "كلية كل الأرواح" أو "كلية ماجدالين".

\*\*\*

وهناك مجالات عديدة أخرى للتراث وحلقات مفقودة ما بين علوم ومعارف العلماء المسلمين.. وعلوم ومعارف الفلاسفة والعلماء الأوروبيين.

وهناك الكثير من المراجع وأمهات الكتب التي تنتظر النشر أو التحقيق، وقد قدر أحد الكتاب أن أمهات المراجع في الفقه الإسلامي وحده التي تنتظر النشر والتحقيق تصل إلى ستة آلاف<sup>(٣٧)</sup>.

ولا ريب في أن أقرب ما في التراث إلى الإسلام هو ما جاء عن الإسلام نفسه عقيدة.. وعبادة.. وشريعة.. منذ أن سجد الرسول الكريم في روضته حتى الآن. بما فيه مواقف أبي بكر، واجتهادات عمر، وقضايا على ثم المذاهب الإسلامية من معتزلة أو خوارج أو مرجئة أو شيعة حتى ظهور المذاهب الأربعة المشهورة، أو ما لم يقدر له البقاء كالظاهرية أو غيرها.. وما تلا هذه الأجيال من أجيال يبدأ الواحد منها حيث انتهى سابقه، ويضيف على المتن شرحاً ليوضع على الشرح حاشية لتطرز الحاشية بحاشية أخرى..

إن هذا التراث الضخم الذي فنت فيه أعمار.. بعد أعمار وخدم بكل تقوي وإيمان، وجذب عباقرة العالم المسلم لا يزال الكثير منه محفوظاً في مكتبات العالم.. وما نشر يتطلب الشرح والتحقيق. حتى يمكن لمنقف العصر الإمام بطريقة السابقين. ولا يخالجنى شك في أنه عندما يتجلي الفقه الإسلامي فستشرق على القانون الدولي شمس جديدة ينكشف أمامها القانون الروماني أو قانون نابليون أو غيرهما من القوانين<sup>(٣٨)</sup>.

ونحن على تقديرنا العظيم لهذا التراث وإعجابنا به، فإننا لا نري أن هذا يعني الالتزام الحرفي به، أو إسباغ صفة القداسة عليه. وإنه لمن أعظم الخطأ أن نتصور أن أحكام الأئمة والفقهاء ملزمة شأنها شأن النص القرآني المحكم، أو السنة النبوية الثابتة، فما كان الأئمة يتصورون هذا، أو يضعون كلامهم في مرتبة القرآن والحديث، ولم يترددوا قط في نبد أي رأي قالوا به بمجرد علمهم بنص جديد، أو حتى ظهور أي رأي أفضل.

وقد يصور ذلك ما روي عن أبي حنيفة أن رجلاً عرض عليه عدداً من الفتاوى كان قد أفتاه بها قبلاً، فرجع عنها فقال له الرجل كيف هذا؟ قال كان رأياً رأيته فرأيت العام غيره. فقال الرجل افتأمني أن لا تري من قابل شيئاً آخر قال لا أدري كيف يكون ذلك<sup>(٣٩)</sup>. ومن المعروف للعلماء أن الأئمة، بل وجلة الصحابة، لم يدركوا كل الأحاديث أو الآيات أو الأحكام لأنهم لم يلازموا النبي ملازمة دائمة وإنما سمع كل واحد طرفاً أو نتفاً بقدر ملازمته. ولا يستثني من ذلك الخلفاء الراشدون "فهذا أبو بكر رضي الله عنه لما سئل عن ميراث الجدة قال "مالك في كتاب الله شيء، ولكن أسأل الناس" فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا أن النبي أعطاهما السدس، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه. ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن

٣٧. انظر مقالاً للأستاذ جمال العطيفي عن تقنين الشريعة بجريدة الأهرام العدد الصادر يوم ١٤/٦/٧٢.

٣٨. لقد رأينا أخيراً أن التواكل والاعتماد على التراث اعتماداً كلياً حال دون استخدام العقل حتى صدى عقل المسلمين، وأصبح الاتجاه لدينا هو تنحية التراث جانباً، والاعتماد على العقل والبدء من نقطة الصفر. ولم يعد أمامنا وقت حتى لتنقية التراث. فما ننفقه من وقت ومال وجهد في ذلك أجدى به أن ننفقه على فكر يجابه تحديات العصر، والمجتمع بعد، ليس متحفاً للآثار القديمة ولكنه ساحة صراع بين قوى الحياة، ولا يحول هذا دون أن يعكف بعض الأكاديميين على التراث كما يعكف علماء الآثار القديمة عليها لمعرفة الماضي لا للأخذ بها في الحاضر أو المستقبل. "إضافة للطبعة الثالثة" - المؤلف.

٣٩. تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة ص ٥١.



سفيان أمير رسول الله على بعض البوادي يخبره أن رسول الله أوث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله، قال: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب"، ولما قدم سرخ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه، ثم الأنصار، ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأي ولم يخبره أحد بسنه حتى قدم عبد الرحمن ابن عوف فأخبره بسنة رسول الله في الطاعون وأنه قال "إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه" وهذا عثمان رضي الله عنه لم يكن علمه بأن المتوفى عنها زوجها تعتد في بيت زوجها حتى حدثته الفريجة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي قال لها امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" فأخذ به عثمان<sup>(٤٠)</sup>.

وأفتى عثمان وابن عباس وزيد وابن عمر وغيرهم بأحكام رجعوا عنها عندما علموا بسنة كانوا يجهلونها "ومن اعتقد أن كل حديث قد بلغ كل واحد من الأئمة أو إماماً معيناً فهو مخطئ خطأ بيناً"<sup>(٤١)</sup>.

ومع هذا فنحن نعتقد أن فتح باب الاجتهاد، ما لم ينظم، فقد يؤدي إلى مثل الفوضى التي أدت إلى غلقه. وإن لم يكن لنا العذر الذي كان للأقدمين، الذين لم تتوفر لهم وسائل الاتصال المتوفرة لنا..

وأتصور أن يعقد في كل عام مجمع للاجتهاد الإسلامي يحضره مجتهدون من كل الأقطار الإسلامية يعرضون وجهة نظرهم دون إصدار حكم فيها وتنتشر محاضر هذه الجلسات في الصحف وتوزع على الشخصيات المعنية لتكون محل دراسة ومناقشة في مختلف الدول الإسلامية، فإذا حال الحول نسقتها سكرتارية المجمع وصنفتها ولخصتها ووضعها أمام الجميع ليعالج الموضوع في ضوء المناقشات السابقة. فإذا تبين للمجمع رأي جلي واضح أخذ به واعتبر أنه رأي الجمهور.. وإلا أجله إلى قابل. وبهذه الطريقة يمكن التوصل إلى مذهب جديد يجمع حسنات المذاهب وتكون له صلاحية خاصة بالنسبة للعصر، ويمكن لهذا المذهب أن يصبح المذهب "الرسمي" دون أن يكون هناك إلزام بأن يتبعه كل واحد. فإذا أوضح التطور أن هناك خطأ أو قصوراً في ناحية من نواحي المذهب يتطلب التعديل عرض الأمر على الاجتهاد ليقوم بالتعديل المطلوب، شأنه في ذلك شأن أي قانون يسن ثم يتضح قصوره فيعدل بقانون آخر<sup>(٤٢)</sup>.

٤٠. كتاب "الحديث والمحدثون" تأليف الشيخ محمد أبو زهو ص ٢٩.

٤١. المرجع السابق ص ٢٩.

٤٢. قضى الأمر، واصلنا "تحو فقه جديد" بأجزائه الثلاث ما بين ٩٥-١٩٩٩ بعد أن لم يتحرك أحد للتفكير فيما عرضناه هنا سنة ١٩٧٢ والمفروض أن يكون ما جاء في "تحو فقه جديد" مثار للمناقشة.